المراهق هو رجل المستقبل ... والمراهقة هى أمرأة المستقبل

المراهقة

والعناية بالمراهقين

تأليف
الأستاذ/ محمد محمود عبد الله
مدرس علوم القرآن بالأزهر

دار السندس للتراث الإسلامي
Elsondos For Islamic Heritage
ش السيد الدواخلى - أمام جامعة الأزهر بالحسين - القاهرة

■ اسم الكتـــاب: المراهقة والعناية بالمراهقين

■ تـألـيــف: الأستاذ/ محمد محمود عبد الله

■ النـاشــر: دار السندس - للتراث الإسلامي

■ تليـفـون: ٢٧٨٧٣٤٧٦ - ٢٥٨٩٧٥٢٩ - ٠١٢٣٧٠٧٠٢٦ - ٠١٢٢٥٩٢٤٦٧

■ سنة النشـر: ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

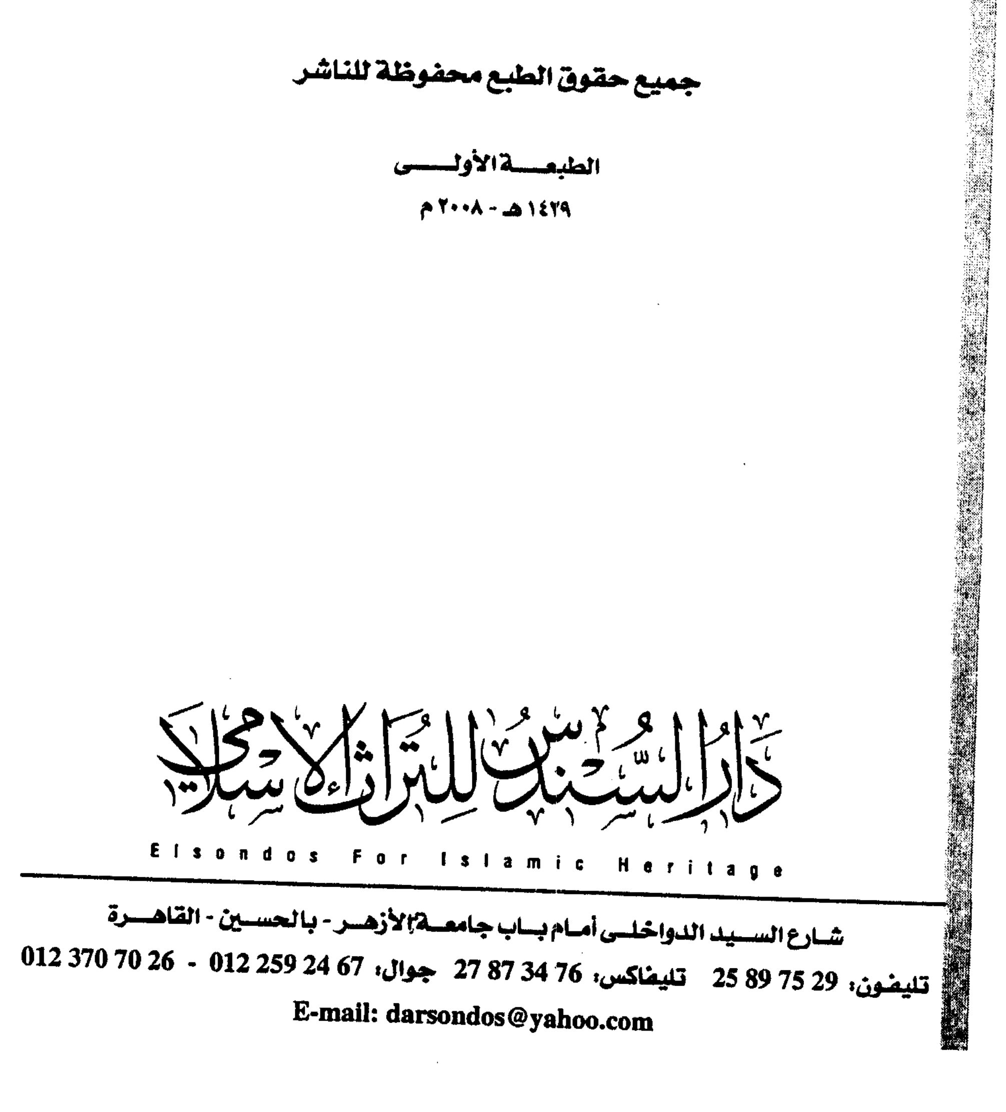
■ عدد الصفحات: ١١٢ صفحة

■ رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٢٤٥٦٠

■ تصميم الكتاب: م/ مصطفى أبو غنيمة

الطبعـة الأولـى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م



شارع السيد الدواخلي أمام باب جامعة الأزهر - بالحسين - القاهرة

تليفون: 29 75 89 25 تليفاكس: 76 34 87 27 جوال: 67 24 259 012 - 26 70 370 012

E-mail: darsondos@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الكريم الجوَّاد: خلق الخلق وأحصى العباد: وألزم التقوى قلوب العُبَّاد: ووعد الأبرار بالنجاة من النار يوم الميعاد، وأمر أحبابه بالتزود بخير الزاد فقال جل شأنه **﴿وتزودوا فإنَّ خير الزاد التقوى﴾**.

والتقوى بها المؤمن أقوى: وصلاة وسلامًا على المبعوث بالرحمة القائل: **«اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»**.

ومن جميل العدل: العدل في تربية المراهق والعناية به ورعايته وسد حاجاته: والتلطف معه في معاملته في هذه المرحلة الحرجة من مراحل حياته: فإنَّ مرحلة الانتقال من الطفولة إلى الرجولة والرشد قال عنها علماء النفس إنها مرحلة عصيبة يكون فيها الفتى والفتاة في أمس الحاجة لرعاية الوالدين وكذا مَن حولهما من المعلمين وجميع من يشاركونهما الحياة فكرًا ومعاملة... نصحًا وإرشادًا: فإنَّ الشباب هم أمل الأمة وسواعد نهضتها إنْ أحسنا إعدادهم إعدادًا جيدًا منذ بدء الطفولة وحتى انتقالهم إلى مرحلة الرجولة تنشئة تنسجم مع وسطية الإسلام الحنيف دون إفراط ولا تفريط في العلاقات والمعاملات والسلوك.

وقد بيَّنت في هذا البحث معنى المراهقة وخصائصها مع التركيز على العناية بالمراهق وكيفية رعايته والتعامل معه في هذه المرحلة الحرجة من حياته لأنَّ الأبناء أمانة في أعناق الآباء، قال الحق جل وعلا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾** (التحريم:٦) فحسن تربية الأبناء ورعايتهم وتأديبهم فيه الوقاية من النار. وهو بحث مفيد أسأل الله تعالى أن ينفع به إنه قريب مجيب: وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

خادم القرآن

محمد محمود عبد الله

تمهيد للبحث

معنى التربية لغة: هي من ربى يُربى. تربية أى تتبع الصغير وأطوار نموه بالعناية والرعاية وإمداده بمقومات الحياة حتى ينمو ويكمل: ومن معناها قول الحق جل شأنه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة:١) أى الذى يربيهم ويمدهم بمكونات أجسادهم واستمرار حياتهم طورًا بعد طور حتى إذا كملوا أقروا له سبحانه بالربوبية.

وفي الاصطلاح: هى العناية بالصغير ورعايته وتنشئته نشأة سليمة في الجسم والفكر بتقديم ما يلزمه لذلك وسد حاجاته النفسية والروحية والجسدية. وخاصة في مرحلة المراهقة...

أهمية العناية بتربية المراهق:

تعتبر مرحلة المراهقة هى المرحلة الحرجة في حياة الأبناء ذكورًا وإناثًا. لذا فإنَّها تحتاج إلى جهد خاص من القائمين على التربية وخاصة الأب والأم في البيت ويليهم المعلمون بالمرحلة الإعدادية خاصة الصف الثالث الإعدادى وحتى الصف الثالث الثانوى فهذه هى أصعب المراحل الحرجة فى حياة الأبناء: وقد تمتد هذه الفترة إلى المرحلة الجامعية: لذا فإنَّ العناية بالمراهق مهمة للغاية وهى مسؤولية كبرى يسأل عنها أولياء الأمور أمام الله جل وعلا يوم القيامة: وقد نادى سبحانه المؤمنين أن يرعوا أبناءهم ويؤدبوهم أحسن تربية فيكون لهم ولأبنائهم الوقاية من عذاب الله جل شأنه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم:٦).

أى لا تهملوهم فتضيعوهم وهم أمانة في أعناقكم، فتستوجبون العذاب على عدم رعايتهم وسد حاجتهم وإرشادهم ونصحهم والأخذ بأيديهم إلى الطريق المستقيم: بما يحقق لهم النجاح والفلاح دنيا ودين والفوز برضوان الله سبحانه أحكم الحاكمين.

وجاء في الهدى النبوى الشريف قوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» (الإمام مسلم).

وقد جاء رجل إلى الفاروق عمر بن الخطاب يشكو عقوق ولده له؛ فأحضر عمر الغلام. فقال له: لمَ عققت والدك فقال الغلام: يا أمير المؤمنين لقد عقَّنى قبل أنْ أعقه. قال عمر كيف؟ فقال الغلام: إنَّ أبى لم يحسن تربيتى وتركنى عالة على الناس. ولم يحسن تسميتى؛ فأسمانى جعران. ولم يحسن اختيار أمى؛ اختارها سوداء دميمة مما جعل الناس يعيروننى. ولم يعلمنى القرآن. فقال عمر ﷺ للرجل: جئت تشكو عقوق ولدك وقد عققته قبل أن يعقك. وأسأت إليه قبل أن يسىء إليك لم تحسن تربيته. ولم تحسن انتقاء تسميته. ولم تحسن اختيار أمه. ولم تعلمه القرآن، اذهب فقد عققت ولدك قبل أن يعقك.

وجاء في تحذير سيد الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد ﷺ قوله: **«كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول»** (الإمام البخارى).

المراهقة فى اللغة:

تُرد كلمة مراهقة إلى الفعل رهق: رهقًا. وراهق مراهقة: وهو من الغشيان أى ظهور علامات تكسو الوجه والجسد وتغيرات نفسية وجسدية فى النشأة عند اقتراب بلوغه...

وتأتى مرهق. ورهقًا بمعنى استنفاد الطاقة وإنهاك القدرة قال الحق جل ثناؤه: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن،٦) وهى هنا بمعنى أتعبوهم في الضلال والحيرة.

وجاءت كلمة المراهقة ومشتقاتها في القرآن العظيم ثمانى مرات في مثل قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ (يونس،٢٦). وتأتى بمعنى السفاهة والحماقة والجهل وغشيان المآثم: جاء في القاموس المحيط (رهق فلان) أى سفه وحمق وجهل.

المراهقة في الاصطلاح:

هى مرحلة اقتراب النشأ من النضج الجسدى والعقلى والنفسى والاجتماعى وهى إعلام بانتهاء الطفولة.

فترة المراهقة:

من الثابت أنَّ مرحلة المراهقة هى الفترة التى حددها العلماء في المدة ما بين الثانية عشرة ١٢: إلى ١٨ سنة. وهي الفترة التى تسبق التكليف للشاب والشابة بقليل.

ومعلوم أنَّ الغرب في قانونهم لا يحاسبون المراهق في فترة المراهقة: لأنهم يعتبرونه يمر بمرحلة عصيبة أثناء هذه الفترة...

أمَّا في القانون الإسلامى فالفتى والفتاة مكلَّفين منذ سن البلوغ بعد الثامنة عشرة سنة. إذْ تجب الصلاة والصيام فرضًا عليهما. وكذا باقى الأركان وبالتكاليف الشرعية تحمل التكاليف الدنيوية في السلوك والعلاقات والمعاملات.

ما هو الفرق بين المراهقة والبلوغ؟

المراهقة: هى تدرج الفتى والفتاة نحو النمو البدنى والنضج الجنسى والعقلى والفكرى.

أمَّا البلوغ: فهو تمام نضوج الغدد التناسلية إعلامًا باكتساب معالم جنسية.

وعلى هذا فالبلوغ جانب من جوانب المراهقة وهو أول دلائل مرحلة الاستعداد للتكليف وتحمل المسؤولية.

خصائص مرحلة المراهقة:

معلوم أنَّ كل مرحلة من مراحل عمر الإنسان يأنس أى شخص بالحديث عنها إلا مرحلة المراهقة وقد أشار الحق سبحانه إلى هذه المراحل في القرآن العظيم بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم:٥٤).

ومن خصائص هذه المرحلة أنَّ المراهق يمر بتغيرات جسمية وعقلية ونفسية واجتماعية رهيبة حتى إنَّ علماء النفس يسمون هذه المرحلة بالعاصفة التى يجب الاستعداد لها من القائمين على أمر الأبناء...

ويجب هنا أن نلقى الضوء على هذه التغُيرات.

أ- النمو الجسمي:

إن جسد المراهق يواجه عملية تحول كاملة في وزنه وحجمه وشكله، وكذلك فى الأنسجة والأجهزة الداخلية، وفى الهيكل والأعضاء الخارجية، فيبدأ الفرد يحس بهذه التغييرات، فيتغير الصوت إلى الخشونة وتبدأ ملامح الرجولة في ظهور الشعر، والأنوثة بالنسبة للبنت، وهذه الأمور قد تسبب الإحراج والخجل، ومن ذلك ظهور حب الشباب.

ويعتبر البلوغ تغيرا فسيولوجيا يتناول الفرد بأكمله، وتعود آثاره على الفرد كله، إنه ولادة جديدة، حيث تظهر وظائف جديدة بطريقة فجائية، وتصبح مسيطرة على التنظيم السلوكى، ويخرج المراهق في هذه الفترة من حيز الطفولة إلى حيز الشباب، وقد يحس أنه أقوى الناس، ويستطيع القيام بأعمال البطولة التى لم يسبق إليها، وفي هذه الفترة تكثر تعليقات المراهقين حول الجسم، ويتنابزون بالألقاب والأشكال، وتكثر تعليقات الآباء والأمهات وذلك بسبب التغيرات الجسمانية.

ب- النمو العقلى:

تتميز فترة المراهقة بنمو القدرات ونضجها، فينمو الذكاء العام عند المراهق، وتزداد قدرته على القيام بالعمليات العقلية كالتفكير والتذكر والتخيل والتعلم.

وتكثر أسئلته حول القضايا العامة والخاصة، ويهتم بالقصص خاصة الجنسية، ويهتم بالأبطال والنابغين والمشاهير، ويحاول أن يتقمص شخصياتهم.

والمراهق في هذه الفترة يستطيع الاستقلال في التفكير، كما يمكنه إدراك الكثير من حقائق الأشياء، والله سبحانه وتعالى قد أمد الإنسان بمواهب كثيرة لاستخدامها والإفادة منها في دعم إيمانه ويقينه ولتمكينه من الترقى فى العلوم والمعارف. والعقل الناضج دعامة أساسية تعين المراهق على فهم دينه، وتزكية روحه، وتهذيب سلوكه، كما تعينه على تحقيق مستوى أفضل من التكيف مع بيئته الاجتماعية، ويختلف الإدراك العقلى عند المراهق من الإدراك العقلى عند الطفل

«حيث إن إدراك المراهق العقلى يتخذ آفاقا واسعة من الماضى والحاضر والمستقبل، ويحاول المراهق أن يتعمق في إدراكه ليدرك الأسباب المباشرة وغير المباشرة والنتائج القريبة والبعيدة»[1].

ج- النمو النفسي:

يمر المراهق بفترة حرجة من التغيرات النفسية، وهو أمر طبيعى لما ينشأ عنه من طاقات واستعدادات وقدرات تتفاعل فيما بينها لتشكيل شخصية المراهق.

ومن هذه التغيرات حدة الانفعال، حيث يغضب ويثور لأسباب تافهة، كما يمتاز الانفعال بالتقلب وسرعة التغير، فهو يريد أن يثبت للغير أنه أصبح رجلا كبيرا له رأيه وشخصيته ولم يعد طفلا، كما أنه يتصف بالحساسية الشديدة المرهفة والتي تتأثر لأتفه المثيرات.

وقد يصاب بعض المراهقين ببعض السلوكيات الخاطئة مثل التمرد والعصيان والانسحاب من الحياة الاجتماعية، وعدم حبهم لمخالطة الناس، وخوفهم من الاجتماع بالآخرين، ولا شك أن كثرة وتنوع انفعالات المراهق أمر طبيعى نتيجة التطور الجسمانى الذى يمر به المراهق، ويعتبر انفعال حب الذات من أقوى انفعالات هذه المرحلة؛ لذا يعنى المراهق بذاته الجسمية ويصرف كل جهده للتحلى بالصفات التى تجذب انتباه الآخرين إليه، وقد يعجب المراهق بقدراته العقلية وبنسب أسرته، ومن هنا تأتى التربية الإسلامية لتبصير المراهق بحقيقة نفسه، وأن النعم التى يرفل فيها إنما هى هبة من الله سبحانه وتعالى، وإن الشكر يزيد النعم، وإن العجب والخيلاء والاستعلاء على الآخرين مفسد لها.

د- النمو الاجتماعى:

يتأثر النمو الاجتماعى للمراهق بالبيئة الاجتماعية والأسرية التى يعيش فيها، كما يوجد في البيئة الاجتماعية من ثقافة وتقاليد وعادات وعرف واتجاهات وميول يؤثر في المراهق، ويوجه سلوكه، ويجعل عملية تكيفه مع نفسه ومع المحيطين به عملية سهلة أو صعبة.

---

(١) الأسس النفسية للنمو، ص٢٨٤ د. فؤاد البهي السيد - دار الفكر العربي.

ومن التغيرات النفسية في فترة المراهقة رغبة المراهق في الاستقلال عن الأسرة، وميله نحو الاعتماد على النفس، كما أنه يزيد ميله إلى الانتماء إلى رفقة أو صحبة أو مجموعة تشاركه مشاعره، وتعيش مرحلته ليبث إليها آماله وآلامه.

والإسلام يوجب على الآباء والأمهات أن يبذلوا جهودهم المتواصلة لتهذيب مشاعر المراهقين، وتقويم طباعهم، وتعودهم على ممارسة العادات والآداب الإجتماعية، ليكون ذلك عونا لهم على التكيف السوى مع أفراد المجتمع، فالأبناء والبنات أمانة استرعانا الله عليها، ونحن مسؤولون عن تربيتهم وتعويدهم على كريم الخصال، وبذلك يقطعون السبل، أمام التوجيه المنحرف، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم:٦).

هـ- النمو الوجداني والاقتصادي:

إن المراهق في هذه المرحلة يعمل على تحقيق ذاته حتى يثبت للناس أنه لم يعد الطفل الصغير الذى لا يُعبأ به؛ ولذلك قد ينتقد بعض التصرفات المحيطة به، ويحاول أن يستخدم إمكاناته بصورة أكثر نضجا، وعلى مستوى أكثر تعقيدا، ليعطى كما يأخذ، وليقيم علاقات مع الآخرين، ويثق فيهم، ويتعلم ما ينفعه وما يضره، وإن رفض المراهق التدخل من قبل الأب أو أفراد الأسرة عموما شيء طبيعى في هذه المرحلة، وكثيرا ما يظهر على المراهق مظاهر عدم الرضا عن الأسلوب الذى تتبعه الأسرة في التوجيه، أو الأمر بعدم مصادقة شخص أو أشخاص معروفين بالسلوك الشاذ، على الرغم من قناعته بصحة وسلامة رأى الأسرة؛ إلا أنه يعتبر أن هذا التدخل يضعف شخصيته.

والمراهق في هذه المرحلة ينشد الاستقلال المادى، ويحاول جاهدا أن يستقل معتمدا على نفسه.

إنَّ العامل الاقتصادى له تأثير سلبى على السلوك النفسى والاجتماعى للمراهق خاصة إذا ما غابت التربية الإسلامية الحقة التي تدعو إلى بذر القناعة والرضا في نفوس أفراد المجتمع كى تسير الحياة مسيرتها الطبيعية دونما خلاف أو شقاق، بل مؤاخاة ومصاحبة وصدق ووفاء.

١- واجب المدرس إزاء النمو الاجتماعى:

(١) يجب أن يشجع المدرس الأطفال على المنافسة الشريفة.

(٢) كما يجب عليه أن يبعد الأطفال عن مواقف التنافس التى تؤدى إلى الفشل.

(٣) أن يشجع على تحمل المسؤولية.

(٤) ومن الضرورة بمكان استغلال ميل الطفل إلى العمل الجماعي والإبداعى.

٢- ما يجب على الآباء والمعلمين لتحقيق ذلك:

يجب على الوالدين والمعلمين أن يكونوا قدوة حسنة في سلوكهم، فالأطفال مشاركون لهم وجدانيا، ومقلدون لهم فى السلوك فطريًا فليحذروا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف:٢-٣).

(٢) مرحلة المراهقة

تعريف المراهقة:

إذا كانت المراهقة تتحدد بدايتها ببلوغ الحُلُم فإن نهايتها التى تتحدد ببلوغ السعي، ثم الرشد أقل وضوحا لأسباب اجتماعية واقتصادية وثقافية وكلمة المراهقة تفيد معنى غشيان الحُلُم والاقتراب من اكتمال النضج، كما تتضمن التعب والجهد والإرهاق التي يعيشها الفتى في هذه المرحلة، وتقسم هذه المرحلة إلى طورين هما:

(أ) طور بلوغ الحلم (المراهقة المبكرة):

وتشمل بداية القوة الجسمية المرتبطة بالبلوغ الجنسي، وتنتهي في الخامسة عشرة تقريبا، وتشمل المرحلة الإعدادية، وتتميز بمرحلة البلوغ بأنها المرحلة الثانية في حياة الفرد التي تصل فيها سرعة النمو إلى أقصاها - حيث كانت المرحلة الأولى من قبل الميلاد إلى منتصف السنة الأولى بعد الميلاد - ويؤذي النمو السريع في البلوغ إلى إحداث تغييرات جوهرية عضوية ونفسية للنمو، وتغيرات جزئية مصاحبة لها. وهكذا يشعر الفرد بالارتباك ويميل سلوكه أحيانا إلى ما يشبه الشذوذ.

ويتأثر البلوغ بنوع الغذاء وكميته، فكثرة البروتين تؤدى إلى التبكير بالبلوغ، ونقص الغذاء يؤخر بدء البلوغ، ويؤثر -أيضا- في النشاط الجنسي للفرد، فحينما يتعرض الأفراد للجوع تضعف تبعا لذلك رغبتهم الجنسية، وبهذا يعالج النبى ﷺ الشباب قائلا: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة (تكاليف الزواج) فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء (مانع وعاصم من الوقوع في الحرام)».**

مراحل البلوغ:

تمر مرحلة البلوغ بثلاث مراحل جزئية، هي:

(١) المرحلة الأولى: ويبدأ فيها بزوغ المظاهر الثانوية للبلوغ، مثل: خشونة الصوت عند الذكور، وبروز الثديين عند الإناث.

(٢) المرحلة الثانية: وفيها يبدأ خروج الإفرازات الدالة على نشاط الغدد الجنسية، مثل: احتلام الصبي، وحيض البنت. ويستمر فيها نمو المظاهر الثانوية.

(٣) المرحلة الثالثة: عندما تصل المظاهر الثانوية إلى اكتمال نضجها، وعندما تصل الأجهزة التناسلية إلى تمام وظيفتها، تصل هذه المرحلة إلى نهايتها، وتبدأ بذلك مرحلة المراهقة المتأخرة.

ويحتاج الفتى إلى فترة ٣ سنوات في المتوسط، حتى يكتمل لديه النضج الجنسي، وهي الفترة التي تقابل في نظام التعليم - قبل اختصاره - بالمرحلة الإعدادية.

(ب) المراهقة المتأخرة:

وتبدأ مع اكتمال التغيرات الجنسية وتمتد إلى سن الرشد الحقيقي ١٨ عاما أو القانوني ٢١ عاما وتشمل المرحلة الثانوية، وقد تمتد إلى المرحلة الجامعية حسب مؤشرات الاستقلال النفسي التي تدل على الرشد الذي يبديه الفرد.

النمو الجسمى في حياة المراهق

أثر التغيرات الجسمية في السلوك:

يصاحب النمو السريع والتغيرات في هذه الفترة أعراض غير ملائمة كالتعب والكسل. وعادة ما تحدث فيها اضطرابات في الجهاز الهضمي ينتج عنها تذبذب في سرعة التحول الغذائي، ويعاني البالغ على فترات متقطعة من آلام الصداع وآلام الظهر، إلا أن هذه الأعراض أكثر شيوعا عند البنات، خاصة في فترة الحيض.

وينبغي الإشارة إلى أن التغيرات التي تطرأ على سلوك البالغ واتجاهاته إزاء البلوغ هي نتاج ظروف اجتماعية أكثر منها نتاج التغيرات الغدية، برغم أهمية التغيرات الفسيولوجية في التوازن الجسمي.

ومن أهم هذه التغيرات ما يلى:

(١) الرغبة في التفرد والانعزال:

يصل ميل المراهق إلى مصاحبة الآخرين قمته في مرحلة الطفولة المتأ خرة، ثم سرعان ما يحدث البلوغ -في فترة وجيزة- فيفقد البالغ ميله إلى رفاق اللعب وينسحب من الجماعة ويقضي معظم وقته وحده، ويصحب ذلك نزاع مع الأصدقاء القدامى، كما يحدث انعزال مفاجئ وواضح عن الأسرة.

فينبغي أن نوجهه إلى جماعة جديدة من البالغين الذين لديهم الميول نفسها، وأن نشغل الصبى بأعمال تستلزم وجوده مع الأسرة، وقد نسمح له بالمكث وحيدًا أحيانًا، على ألا تطول فترات العزلة.

(٢) النفور من العمل:

فبعد أن كان الصبي في منتهى الحيوية والنشاط في الطفولة المتأخرة، أصبح يبدو عليه التعب من العمل بشكل واضح، ونتيجة لذلك يقل عمله في المنزل، وقد يهمل واجباته المدرسية، وهذا النفور ليس كسلا إراديا، وليس لأن الفرد أصبح غبيا كما يظن أولياء الأمور، ولكنه نتيجة للنمو الجسمي السريع الذي يفوق

طاقته، ولا ينبغي أن يلام الفتى على هذا التغير في البيت أو المدرسة، فقد يؤدى ذلك إلى مزيد من النتائج غير السارة، بل يجب أن يبسَّط له العمل المطلوب منه حتى يسهل عليه الأداء.

(٣) عدم الاستقرار:

فميول الصبي تتغير كما يتغير جسمه، إلا أنه لا يكون قد كون ميولاً جديدة تمتص طاقته، ولذا نجده ينتقل من نشاط إلى آخر، ولا يشعر بالرضا عن أي من هذه الأنشطة ويصاحب ذلك مشاعر التوتر والقلق، وحبذا لو ساعد الآباء والمربون المراهق على تحديد ميول جديدة، وذلك بتوفير فرص أمامه لممارسة مجالات مختلفة من العمل والنشاط.

(٤) الرفض والعناد:

تتميز اتجاهات الصبي عند البلوغ بأنها اتجاهات رفض ومعاداة للأسرة والأصدقاء والمجتمع عموما، ولذلك كثيرًا ما نجده مهموما وحزينا، ولا تقتصر همومه على نفسه، بل ينقل أحزانه إلى الآخرين، فيفسد عليهم سرورهم بالمخالفة والمعارضة ورفض رغباتهم، وفي المنزل يكون غيورًا من إخوته وناقدًا لهم، فيسبهم ويتعارك معهم دون سبب واضح، ويعاند عن قصد، ويجادل أفراد الأسرة، لمجرد إثارة المتاعب -خاصة مع إخوته- وتنشأ بينه وبين الأصدقاء معارك لأتفه الأسباب، ومع التقدم في البلوغ يزداد الصبي نضجا في سلوكه الاجتماعي، ويصبح أكثر صداقة وتعاونا مع الآخرين. وعندئذ لا يصح أن يصل الجدال مع البالغين إلى مرحلة الصدام، وينبغي حينما ينتقد الآخرين نقدًا صادقا، أن يعدل الآخرون من سلوكهم ويشكرونه على أنه وجههم إلى عيوبهم ليصلحوها، كما ينبغي أن يصلح نفسه هو كلما وجهه الكبار.

(٥) مقاومة السلطة:

يحدث في هذه الفترة أكبر مقدار من النزاع بين المراهقين ووالديهم - وبخاصة الأم - ويسعى البالغ إلى مقاومة كل ألوان السلطة، وحين يعرف أن محاولاته تبوء بالفشل يزداد عنادًا، وقد يلجأ إلى الانسحاب من المواقف التي

تؤدي إلى العقاب بسبب عدم الطاعة، وقد يصبح مصدر إزعاج للآخرين إلا أن هذا كله يتناقص خلال النمو مع اكتمال النضج الجنسي. فلا ينبغي أن تكون أوامر الأم حادة وحازمة، لأن معظم العناد والمقاومة يوجه إليها، وذلك لاطلاعها على معظم تصرفاته منذ الطفولة، وقد تمرر بعض الأخطاء الصغيرة دون أن تعلق عليها، وتستعين هنا بالأب أو الأخ الكبير في توجيه البالغ.

(٦) الانفعال الشديد:

يؤدي التوتر والاضطراب الناتجان عن الاتجاهات والميول المتغيرة من ناحية، وعن التغيرات الجسمية من ناحية أخرى إلى حدة الانفعالات، ويكون المراهق شديد الحساسية، ويفسر معظم ما يسمعه من الكبار والأقران على أنه موجه إليه. وتزداد في هذه الفترة المخاوف المتوهمة، فيشعر بالقلق من المشكلات التي تتعلق بكفاءته الشخصية والاجتماعية، ويشعر أنه لم يعد محبوبا من أحد، وأن العالم كله ضده.

- فينبغى عند نصح المراهق أن يسبقه مدح لما قدم من أعمال حسنة، ثم نقول حبذا لو فعلت كذا وكذا حتى يكتمل الحسن.
- كما ينبغى التعبير للمراهق عن حب الكبار له، وأنهم لم يقصدوا إهانته مطلقا، بل نصحه وتوجيهه.
- وينبغى توضيح المواقف التي يغضب منها المراهق، حتى يفهمها على وجهها المطلوب.
- لا يصح التعليق والسخرية من انفعال المراهق وحدته أو من طريقته في العمل، حتى لا تزداد عزلته وانطواؤه.

(٧) نقص الثقة بالنفس:

فالطفل الذي كان يزهو بنفسه يصبح عند البلوغ أقل ثقة بنفسه، فيشك في قدراته، ويشعر بأنه أصبح أقل كفاءة من الناحيتين الشخصية والاجتماعية، وقد يختفى هذا الشعور وراء كثير من أنماط العناد التي يبديها، فقد يكون رفضه للأعمال والمهام المطلوبة منه ناشئا عن خوفه من العجز، كما قد يختفي هذا

الشعور أيضًا وراء كثير من التباهي والتفاخر بقدراته، ثم الانسحاب وانتحال المعاذير، حينما يطلب منه أداء المهام التي يتباهى بقدرته عليها.

وينشأ معظم الشعور بعدم الثقة لدى المراهقين في فترة البلوغ مما يأتي:

- نقص المقاومة الجسمية، والقابلية الشديدة للتعب.
- الضغوط الاجتماعية المستمرة التي تطلب منه القيام بما هو أكثر مما كان يؤديه من قبل.
- نقد الكبار لطريقته في أداء العمل، أو لعدم قيامه به.

وينبغي أن يوجه الكبار معظم تعاملهم معه على إعادة ثقته بنفسه:

- فلا يكلفون المراهق بجميع الأعمال التي يدعي أنه يجيدها ويحسنها.
- وحين يكلفونه ببعض الأعمال ينبغي أن يوضح له بديل في حالة عدم قيامه بما كلف به، ولا يلام كثيرًا على عدم قيامه بالعمل.
- وأن يكلفوا المراهق الذي يخشى الفشل بأعمال بسيطة يستطيع أداءها بسهولة، ثم يُمدح كثيرًا، لأنه قام بالمطلوب منه تماما.
- ولا بد من إشباع حاجته إلى النجاح والحاجة إلى التقدير، لكي لا يفعل أفعالاً توقعه تحت طائلة القانون، مدفوعا إلى تأكيد ذاته المفتقدة في هذه الفترة.

(٨) شدة الحياء:

يشعر البالغ بالحياء الشديد إذا دخل عليه أحد فجأة وهو يغير ملابسه، كما يخجل من شكل جسمه، ويتخيل أن الناس ينظرون إليه وهو يسير في الشارع. وحينما يجلس مع الكبار يحار في طريقة جلسته وفي وضع يديه، وهذه أمور لم تكن تثير فيه مشاعر القلق في الطفولة. وبالطبع فإن الحياء يعد أساس الشعور الخلقي فيما بعد. (والحياء شعبة من الإيمان).

ولا يصح أن تضيع شدة الحياء على الفتى حقا من حقوقه، أو تجعل الآخرين يذلونه وهو يستحي من الرد، لقد قال الرسول ﷺ: **«الحياء كله خير»**. ولكن الحياء الذي يضيع الحقوق ليس حياء. إنه نوع من الجبن أو الذل، فلا بد أن

يتعلم الفتى أن يطالب بحقوقه جيدًا، كما يتعلم الا يرضى بالهوان، ولا يستكين أبدًا، فلا بد أن يراعي المدرس ذلك، ويعطي للفتى ثقته بنفسه، حتى لا يرتبك حينما ينظر إليه أو يتعامل معه أحد.

(٩) أحلام اليقظة:

يسرح البالغ كثيرًا بخياله، فيحل كثيرًا من مشاكله ولكن في عالم الخيال، وتدور أحلامه حول (بطل مظلوم) والبطل بالطبع هو البالغ نفسه. وقد يكون الظلم الذي يتخيله من سوء الفهم أو سوء المعاملة التي يلقاها من الكبار.

وتكون أحلام اليقظة بهذه الطريقة مصدرًا مهما للتعبير عن الانفعالات أو إشباع الدوافع، فهو يستمتع بالحلم مهما تشتد المعاناة، لأنه يعلم أن نهايته دائما ستكون لصالحه، إلا أن هذه الأحلام لها جوانب سيئة:

- فكلما ازداد البالغ اندماجا في هذه الأحلام ازداد بعدًا عن الواقع، وازداد تكيفه الاجتماعى سوءًا.
- الاستمرار فيها بعد هذه المرحلة مضيعة لوقته وجهده، ويفسد عليه عبادته ومذاكرته، وعلى المدرس أن يأخذ بيد الصبي نحو الواقع، ويجعله يفكر بطريقة واقعية، ويقلل من شروده، ويقنعه بأن يحقق أحلامه في الواقع، وأن يناقش معه مشكلاته، حتى يستطيع طرحها والتعبير عنها.

(١٠) الاهتمام بمسائل الجنس:

يؤدي نمو الأعضاء الجنسية في فترة البلوغ إلى تركيز انتباه البالغ إلى مسائل الجنس إلى الحد - الذي يشغل معظم وقته وتفكيره - فيقارن بين شكل جسمه وأجسام الآخرين من أقرانه من الجنس نفسه، ويقرأ بعض الكتب على أمل الحصول على بعض المعلومات عن الجنس، ويلجأ إلى بعض المصادر غير الدقيقة، ليشبع نهمه في هذا الموضوع، مثل: الأصدقاء أو الخدم أو الشارع أو الكتب الرخيصة أو أفلام الجنس التي شاعت في السنوات الأخيرة، وتمثل خطرًا بالغا على البالغين في هذه الفترة بالذات، وعلى الإنسان في مختلف مراحل عمره، وقد يؤدي ذلك بالمراهق إلى بعض الانحرافات الجنسية.

الحاجات النفسية
للفتى والفتاة في سن المراهقة

هناك بعض الاحتياجات التي لا بد أن يشبعها الفتى والفتاة، لكى يعيش حياة سوية، وليستطيع أن يستفيد بطاقته جيدًا، فإذا لم يشبع هذه الاحتياجات، ظلت تلح عليه، فلا يستطيع أن يفكر جيدًا، أو يعمل سويًا، ما لم تشبع احتياجاته، وهذه الاحتياجات منها:

أولاً: الحاجات الفسيولوجية:

وهي الاحتياجات الجسمية الضرورية، التي تكفل بقاء الفرد، واستمرار نوعه، كالطعام والشراب. ولهذه الحاجات الأولوية في الإشباع، ولا يستطيع من لم يشبع هذه الحاجات أن يفكر في إشباع أية حاجات أخرى، والفرد أو الجماعة التي تنشغل بلقمة العيش وإشباع البطون لا تستطيع أن تفكر فيما هو أبعد من ذلك، ويلاحظ أن الشعوب الفقيرة تنشغل بطعامها، فالجوعان يفكر في إشباع بطنه -أولاً- وإشباع هذه الحاجات ضروري أثناء التعامل مع الفتيان، في هذه السن. وليس معنى هذا أنك لا بد أن تطعم كل من تريد أن تتعامل معه - ولو فعلت ذلك لكان جميلا - ولكن معناه أن تتأكد -أولاً- أن هذه الحاجات من طعام وشراب وملبس ومسكن مشبعة، كما أنه لا بد من معرفة حال الصبي المادية، وحال أسرته كذلك. لا بأس أيضًا ببعض الحلوى أو الأطعمة الخفيفة التى تعطي للفتيان كنوع من الترفيه والتشجيع.

ثانيًا: الحاجة إلى الأمن:

فالطفل -منذ نشأته- يشعر بالأمن في وجود الكبار، ويفزع من الوحدة والظلام، ويأمن حين يجد من يضمه ويحنو عليه، والكبير يخشى المجهول والمستقبل إذا لم يكن ملتزما بدينه.

ووسائل تحقيق الأمن هي:

يتحقق الأمن بتقوى الله (سبحانه) وقد ترجم ذلك سيدنا إبراهيم وهو

يتحاور مع قومه حينما أخافوه بآلهتهم قائلاً: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام:٨١).

ويقول ربنا في الآية التي تليها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام:٨٢).

فتقوى الله، وعدم ظلم النفس أهم سبيل من سبل الأمن.

والإيمان المقرون بالعمل الصالح طريق الأمن التام: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور:٥٥).

ويتحقق الأمن بالثقة بسلامة الطريق -أي طريق- والثقة برفقاء الطريق والثقة بدليلك في الطريق، فمن يسير في طريق غير آمن أو يكون رفقاؤه غير مأمونين، أو يكون هاديه على الطريق لا يعرف أين يذهب، كان أكثر وقوعا في الخوف والقلق. أما أهل الرأي فسوف يبصرون رفاقهم بمنعطفات الطريق. فالمطلوب إذن أن يشعر الفتى أن البيئة من حوله صديقة ودودة، فالكل يسبح بحمد الله، ويسعى إلى رضاه.

ومن لم تشبع عنده الحاجة إلى الأمن قد يكون سلبيا مطيعا، حتى في الخطأ، ولا يسعى إلى التغير إلى الأفضل أبدًا، وقد يكون عدوانيا، ينتقم من المجتمع الذي حرمه الأمن، وذلك بحرمان ذلك المجتمع من الأمن.

ثالثًا: الحاجة إلى الحب:

فالفرد يحتاج إلى أن يحبه الآخرون، وأن يحب الآخرين. وهو يشعر بالسعادة حينما يقترب منه من يحبه، وحينما يشكو إليه ويجد منه تفهما وحنوا، وهو يريد أن يشعر بحب الله له، كما يريد أن يشعر بحب الناس. وهذه المشكلة لا تزال تلح على تفكيره دائما، وهي كيف يستطيع أن يصل إلى حب الآخرين، وكيف

يكون مقبولاً لديهم؟ ولا يتحقق إشباع هذه الحاجة إلا في وسط اجتماعي ينصح الفرد ويطلب منه النصيحة في ود.

ومن وسائل ذلك أن يفهم الفتى:

أن الفرد يحتاج إلى أن يربط بالقوة العلوية التي تحكم الكون في حب، والله ييسر الطريق إلى ذلك ويوضحه، جاعلا حبه في اتباع سنة رسوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران:٣١).

وأن من دلائل الإيمان حب الله والمتمثل -كما سبق- في اتباع رسوله. ومن دلائل ضعف الإيمان تساوي الحب لله مع غيره من الخلق ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة:١٦٥)، فالله يخبرنا أن شدة الحب لله قرينة بالإيمان.

وأن الحب لله لا يناله إلا المؤمنون، ولا يرتبط بجنس من الناس أو لون أو شخص، ولا يعطي بلا قيد، ولكنه يرتبط بالإيمان، فإذا ارتد الناس على أعقابهم، أو ارتدوا عن دين الله، فسينصرف عنهم هذا الحب، ويعطى لمن يستحقه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة:٥٤). فهذه صفات الذين يحبهم الله ويحبونه، فإما أن تتحقق في أمة من المؤمنين أو يستبدلهم الله بغيرهم، ولن ينالوا شرف المساهمة في الدعوة إلى دين الله (سبحانه).

رابعًا: الحاجة إلى التقدير:

يبذل الفرد كل ما لديه من مهارات وجهد، كي يقدره الآخرون، فيشعر بالقيمة وعلو القدر. ويتمثل هذا التقدير في إثابة الفرد أو مدحه أو الثناء عليه. ويكون بناء على علمه أو نجاحه في عمله، أو معاملاته أو مدى تطابق قوله مع فعله، أو اجتهاده لفعل الخير، أو طاعة الله، وقد يكون في حديث رسوله: «لأعطين الراية غدا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» ثم أعطاها لسيدنا علي، قد يكون هذا قمة التقدير.

وأيضا حينما أتى سيدنا علي إلى أصحاب رسول الله ﷺ وهم جلوس حوله، فلم يجد مكانا، فقام سيدنا أبو بكر، وأفسح مكانا لسيدنا علي بجوار رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: **«يا أبا بكر إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل»**. فسيدنا أبو بكر يقدر سيدنا عليا، ويقدر رسول الله سيدنا أبا بكر. فالمراهق يحب أن يعرف الآخرون قدره، وهذا أمر يفتقده في هذه المرحلة، فإذا ما قدره أحد، نال بهذا حبه وثقته بنفسه وبإمكاناته. وطريق ذلك أنه حينما يبذل جهدًا -ولو صغيرًا- نقدر له جهده ونشكره عليه، ونعرفه أنه يستطيع أن يبذل المزيد لو أراد.

ويؤدي عدم إشباع هذه الحاجة إلى الإحساس بالدونية واحتقار الذات.

خامسًا: الحاجة إلى المعرفة:

وهي الرغبة في المعرفة والفهم، والاستزادة من العلم، وإتقان المعلومات وصياغة المشكلات وحلها، وترتبط زيادة العلم بالاعتدال في الاستجابة والتوسط في الأمور للمراهق. وزيادة العلم ترتبط أيضا بحسن التصرف وحل المشكلات، كما تعنى بالنسبة إلى المراهق ثقته بالنفس وعلو القدر بين الناس، وتعني أيضا الاعتماد على النفس في أخذ قراره وحل مشكلاته.

ينبغي أن يفهم المراهق:

● أن الله عز وجل يقدر أهل العلم يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:٩) كما أنه يرفع أهل العلم في الدنيا والآخرة ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة:١١).

● وأنه لفضل العلم في الدنيا والآخرة يأمر الله رسوله أن يسأل الله العلم والزيادة فيه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:١١٤). فأهل العلم هم أهل عمارة الأرض وأهل الاستخلاف فيها، والعلماء هم أكثر النّاس خشية لله، لما يعلمون من فضله وعظمته وقدرته وحكمته ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨).

● وأن تقوى الله هي التي تيسر الطريق إلى العلم أو هي الطريق إليه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة:٢٨٢)، والله عز وجل يكرم الإنسان الذي يلتمس العلم ويجزيه عليه جزاءً وافرًا، فقد قال رسول الله ﷺ: **«من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له طريقا إلى الجنة»، «ومن خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».**

ومن ثم فواجب الآباء والمعلمين:

● إشباع هذه الحاجات -أولا بأول- لدى الطفل والمراهق، لنحفز الفرد إلى حب العلم والتحصيل، وإلى الاستفادة من أي علم يصل إليه الفرد، وبذلك نعالج حالة الجهل السائدة، ويحب المراهق القراءة، ويستشعر اللذة في زيادة العلم، وقد يكون إشباع هذه الحاجة من أقوى دوافع التعلم الدراسي.

● تشجيع المراهق على بذل المجهود الذاتي في طلب العلم وفي تحصيله، سواء كان بالقراءة، أو الاستماع، أو الملاحظة، أو الدراسة.

● تشجيع المراهق على تكوين مكتبة - مهما تكن صغيرة وتقدير الكتب والاحتفاظ بها، لقراءتها فيما بعد.

● إثابة المراهق حينما يتعلم جديدًا، أو يقرأ كتابا، أو يصل إلى نتيجة صحيحة، من خلال التأمل والملاحظة، أو من خلال التجريب.

● أن يستمع المدرس بانتباه إلى المراهق إذا أراد أن يقص عليه قصة أو يحكى له حكاية أو يعرض عليه علما قرأه أو استمع إليه، ولا ينسى الثناء عليه وتشجيعه.

● التقليل من عناصر التشويش في المنزل قدر الإمكان، مثل: التليفزيون والإذاعة أثناء الفترات المحددة للمذاكرة.

● إرشاد المراهق إلى الطريقة الصحيحة في القراءة والكتابة، وتعريفه بأهمية الرياضة في تجديد الدورة الدموية، وتنشيط المخ.

● دفع المراهق إلى أن يسأل حينما لا يعرف، وتشجيعه على ألا يستحي من

السؤال، وينبغي إحياء قيمة السؤال في تحصيل العلم، وتعريفه الطريقة الصحيحة لسؤال العالم والأستاذ، فبالسؤال يصل الفرد إلى علم كثير في وقت يسير.

وقد رغب رسول الله ﷺ في ذلك، فعرفنا أن الجهل مرض شفاؤه السؤال، فقال: «**إنما شفاء العيِّ السؤال**».

كما حذرنا من الحياء حين السؤال عن العلم أو التكبر عليه، فقال: «**يضيع العلم بين اثنين: الحياء والكبر**» ولعله معروف أن الحياء يمنع من السؤال، والكبر أيضا يمنع منه، فكان العلم يضيع حينما لا يسأل العلماء سواء حياء، أو تكبرًا.

سادسا: الحاجة إلى النجاح والرغبة في التفوق:

شعور الفرد بالنجاح في إنجاز عمل ما يدفعه إلى الاستزادة، ويشعره بالثقة بالنفس، والجراءة في تناول الجديد من المشكلات، والفرد لا يسعى إلى النجاح فحسب، بل يفعل ما في وسعه حتى يكون أداؤه أفضل من أداء الآخرين، ليحصل على رضا الآخرين وحبهم، ويتفوق على أقرانه، حتى يصل إلى التقدير.

ويجب أن يتم إشباع هذه الحاجة بالتدريج، ويعطي الفرد عملا يتأكد المدرس أنه سينجزه بنجاح، ثم يترقى بعد ذلك في الأعمال وهو ينتقل من نجاح إلى نجاح، ثم يشجع بعد ذلك على السعي والتفوق.

ويجب أن يحبب المراهق في الدراسة، ولن يوجد هذا الحب إلا بعد الشعور بالنجاح في كل إنجاز دراسي. والإحساس بالنجاح يغرى بمحاولات أخرى للوصول إلى نجاح جديد، يشعر معه الفرد باللذة المصاحبة للنجاح، ويعزز ذلك كله بالمنافسة والتفوق على الأقران، ويستطيع الفتى أن يتفوق عليهم إن هو أراد وحاول، فإذا أقنع الوالد ابنه بهذا، يكون قد نجح معه إلى حد كبير في دفعه نحو العلم، والثقة بالنفس.

سابعا: الحاجة إلى الانتماء:

فالفرد يسعى أحيانا من أجل مصلحة الجماعة التي ينتمي إليها، ربما أكثر من سعيه من أجل مصلحته الشخصية - أحيانا - سواء كانت هذه الجماعة أصدقاء، أو عمالاً، أو جماعة الفصل المدرسي، أو أي جماعة أخرى. وسلوك

أعضاء الجماعة يكون صورة صادقة لسلوك قائد هذه الجماعة. والشخص يشعر بالقوة والأمن حين يتوحد مع جماعته ويحتاج الفتيان - إلى حد كبير - إلى التدريب على العمل بروح الفريق، أو العمل الجماعي، الذي يكون الفرد فيه جزءًا من كل، ودوره ضروريا جدًا لإنجاز العمل، ولكنه ليس هو الدور الوحيد.

ومن ثم فعلى الآباء والمدرسين تربية الأبناء على:

● أن العمل الجماعي يخلص الفرد من الأنانية والاستعلاء وحب الظهور، ويكسبه عادة التعاون، وذلك على جميع مستويات العمل بدءًا بالتخطيط، وانتهاء بالتقويم.

● وأن ديننا الإسلامي دين جماعي الطابع، ويدعو إلى الجماعة في تأدية الصلاة، وهي رأس العبادات، ورسول الله ﷺ يرغب في العمل في جماعة دائما، فيقول: «**يد الله مع الجماعة**». وهذه المنظومة الرائعة من التعاون والتوادُّ والتناصح نتيجتها طيبة، يقول عنها رسول الله ﷺ: «**فمن أحب منكم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة**». ويحذر رسول الله ﷺ من مفارقة الجماعة في منتصف الطريق فيقول: «**من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**».

● وأن الانتماء إلى الجماعة يلزمه الحب والثقة، فيلزمه الحب لأفرادها وقادتها، والثقة بمنهجها وسلامة سيرها وقرارات قائدها، ولاحظ معي أن العنصرين (الحب والثقة) هما ذاتهما المطلوب الوصول إليهما مع البالغين: أن يحبك كمربٍّ، ويثق بك كأب وصديق ومعلم، فإن هذين العنصرين يجعلان العمل مع المراهقين سهلا مثمرا.

● وأنه إذا وضعنا في الحسبان تعقد الحياة المعاصرة وتشابكها كان من الضروري التعاون مع الآخرين وتيسير الحياة أمامهم ليعود الخير في النهاية إلى الفرد نفسه، ولأن الجماعة تتيح فرصا أفضل للحياة ككل. وتصل إلى آفاق لا يمكن أن يصل إليها فرد واحد مهما يكن جهده.

● وأن فعل الخير دائما لا يكون إلا في جماعة أو لجماعة، فلا أتصور أن أعيش منفردًا ثم أفعل الخير، فكيف يكون؟!

● وأن الجماعة الطيبة تخلص الفرد من الخصال السيئة، وتزوده بالسجايا الحميدة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، لأنه يلاحظ الآخرين حينما يحسنون فيتمنى أن يكون مثلهم، ويلاحظ كره الطيبين لمن يسيئ فيتجنب الإساءة، وأن الجماعة تحفزه وتشجعه على العلم والإنجاز، وتملأ وقت فراغه بما هو مفيد من الأعمال، وتعينه على إتقان الحِرَف أو مزاولة التجارة، وتسوِّق له إنتاجه، وتمده بالأفكار الجديدة المفيدة.

ثامنًا: الحاجة إلى الاستثارة:

فالإنسان يبحث عن الراحة والهدوء، إلا أنه بعد فترة يمل الهدوء، ويسعى إلى موضوعات تشغله، ومن دون هذه الاستثارة يشعر الفرد بالفراغ، فهو لا يطيق أن يعيش في عزلة تامة، لا يفعل شيئًا، بل يميل إلى الشغل والعمل.

وعلى الآباء والمدرسين أن يعلموا:

● إن الإنسان حين يستثار تتحفز طاقاته للعمل، ويعمل عقله قدر طاقته ومن دون الاستثارة والتحفز تتعطل طاقات الفرد عن العمل.

● وإن وجود تحدٍّ ما للفرد هو نوع من الاستثارة، سواء كان هذا التحدي مشكلة تحتاج إلى حل، أو تنافسا على هدف ما، أو ضررًا يلحق بالفرد، أو خطرًا على حياته أو حياة الجماعة أو الأمة أو الدين الذي ينتمي إليه.

● فالمهم -إذًا- أن يظل الفرد شاعرًا بالتحدي، وكلما تغلب على تحد ظهر له آخر والتحديات كثيرة.

● وأنه مما يثير الفرد -أيضا- المخاوف والهموم، إلا أننا نلاحظ كثرة المخاوف والهموم، في حياتنا المعاصرة، ولذلك ينبغي الاعتناء بالاختيار من بينها، فزيادة المخاوف والهموم تشعر الفرد باليأس والإحباط. والتغاضى عنها يؤدي إلى عدم المبالاة والاستخفاف بها فينبغي -إذن- عرض المناسب من الهموم على المراهق في حدود طاقته وقدرته، وفيما يرضى الله ورسوله.

تاسعاً: الحاجة إلى الحرية:

فالبالغ يحب أن يكون حرًا في اختيار ملابسه وأصحابه، كما يحب أن يكون حرًا في التعبير عن أفكاره ومقترحاته وآرائه. وكبت هذه الحرية يجعل الفرد نمطيا وسلبيا في تعاملاته مع الآخرين. وحينما يعطى الفرد حريته في التصرف وأخذ القرار تبرز ذاتيته وتظهر شخصيته، ويعتمد على نفسه في كل شيء. وحبذا - حين المناقشة مع البالغين - أن يشعر أنه صاحب القرار، ولا يصح أن تفرض على البالغ قرارات علوية دون أن يقتنع.

عاشراً: الحاجة إلى الضبط:

فالمراهق يحتاج إلى قدر من الضبط والتوجيه، دون أن يعوق هذا التوجيه حريته.

وعلى الآباء والمعلمين أن يعلموا:

● أن المراهق يخضع للضبط من جماعته أكثر من خضوعه لضبط الكبار، وينبغي أن يستثمر هذا الأمر في توجيه البالغ عن طريق أقرانه وأصدقائه.

● وإن القواعد والقوانين والأعراف هي معايير الضبط للمجتمع كله، وبالطبع لا تتعارض هذه مع حرية الأفراد، ولكنها تصون حريات الأفراد.

● وإن كان إشباع الحاجة إلى الحرية تظهر معه ذاتية الفرد، فإن إشباع الحاجة إلى الضبط يظهر معه التزام الأفراد بالصواب.

● وإنه ينبغي أن تهدف التربية إلى أن يكون الضبط داخليا وليس خارجيا، فحينما يكون الضبط من داخل الفتى والفتاة ينصلح حال الأفراد والجماعات وتقل الجريمة، ويزيد الخير، وتزيد الطاعة حتى لو اختلى الفرد بنفسه، فإن هناك طائفة من الناس قال عنهم رسول الله ﷺ: **«لأعلمن أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء فيجعلها الله هباء منثوراً فيأمر الله بهم إلى النار، فتقول الملائكة: يا رب ما رأينا منهم إلا خيراً، فيقول سبحانه: كانوا إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»** فحتى لا تنتهك الحرمات بمنأى عن الأعين ينبغي أن يكون الضبط داخليا صارما.

الفصل الأول

نظرة بحثية شمولية

١- في مجال المراهقة:

فترة المراهقة: عندما يصل ولدك إلى سن الخامسة عشرة يكون في معمعة المراهقة، ولذلك يكون -على ما أعلم- مصدر قلق لك: إذ ألا يمر «بسن العقوق»؟ ولكن في الحقيقة يوجد في بيتك مراهقان في نفس الوقت، وإنى لأتخيل علامات الدهشة التي ترتسم على وجهك، فإنَّ ابنتك لم تصل بعد إلا إلى سن الثانية عشرة. ولكن في الواقع، تترك الفتاة في حوالي سن الثانية عشرة ما يسمى بالطفولة الثالثة لتدخل في مرحلة المراهقة، بينما ينتظر الطفل عامًا آخر أو عامين قبل أن يصل إلى هذه المرحلة، التي تمتد حتى سن الثامنة عشرة أو العشرين تقريبًا. أما بالنسبة لطفلك الأخير، وهو في الثالثة من عمره، فليس هناك ما يدعو لضمه إلى هؤلاء الشباب ولو أن المرحلة التى يمر بها، وهى الطفولة الثانية وتمتد من الثالثة إلى السابعة، تتشابه كثيرًا في العديد من جوانبها مع مرحلة البلوغ، وهذا ما سأوضحه فيما بعد.

البلوغ والمراهقة والشباب: ولنتفق منذ الآن - وبعد أن حددنا إجمالا الفترة المتوسطة التى تمتد إليها المراهقة - على معانى الكلمات التى ذكرتها منذ قليل للتدليل على هذه المرحلة من الحياة. ولكن يجب أن نعترف بعدم اتفاق الكتاب على معانى هذه الكلمات، وسنلتزم هنا بالحديث عن فرنسا وعادة ما تستخدم فيها الكلمات: البلوغ والمراهقة والشباب خطأ، إذ إنها ليست مترادفة. وتبدو «المراهقة» Adolescernce كما لو كانت كلمة عامة تدل عادة على مجموعة التغيرات الجسمية والنفسية التى تقع في الفترة ما بين الطفولة وسن النضوج. أما عند الحديث عن «البلوغ» `Puberte فإن ما يعن بذهننا عندئذ هو الجانب العضوى للمراهقة وبخاصة ظهور وقيام الوظيفة الجنسية. أما «الشباب» Jeunesse فهو الجانب الاجتماعى للمراهقة، ويمتاز بمناقضته للجيل الذى وصل فعلا إلى النضوج الحقيقى؛ والشباب هو الفترة من النمو التى يندفع خلالها الكائن الذى

صار مالكا لكل إمكانياته نحو من سبقوه في حماس وصبر نافد ليتخذ لنفسه مكانًا تحت الشمس.

ولعلك تفهم الآن لماذا يتحدث الأطباء والبيولوجيون عن «البلوغ» بخاصة، بينما يتحدث رجال الأخلاق عن «الشباب»، ولماذا أفضل كلمة «المراهقة» التى يستخدمها عادة علماء النفس الفرنسيون والأنجلو سكسونيون.

ولكنا إذا نظرنا عن قرب للأمور، نجد أن البلوغ والشباب هما في الواقع فترتان متتاليتان تضمهما المراهقة.

ففي حوالي سن الثانية أو الثالثة عشرة تبعا للأجناس المختلفة، ونعنى بهذا السن اللحظة السابقة تمامًا للبلوغ، وتسمى لحظة «ما قبل البلوغ» La Prepuberte يختل الاتزان الجسمي والفكرى للطفولة، وتطرأ تغيرات عضوية عميقة تعطى للجسم بنية مغايرة وقوة متزايدة وأشكالا أكثر وضوحًا؛ ويقل ثبوت الشخصية وتتحلل العادات الطفولية، وتبرز اهتمامات جديدة تشهد على وجود رغبة في توسيع أفق الحياة الذى كان يقتصر من قبل في أغلب الأحيان على نطاق الأسرة والمدرسة؛ وتزيد أحلام اليقظة حتى تصير أحيانًا عائقا للعمل المدرسى. ويسبق هذا الاضطراب الذى رأى فيه مندوس P. Mendousse فترة من «الحياة المتشنجة»، وبوهلر ch. Buhler «فترة سلبية» - ويعلن أيضا عن قدوم البلوغ والوظيفة التناسلية. وتمتد هذه الفترة من سن الثانية عشرة إلى الخامسة أو السادسة عشرة، وتأخذ دائما شكل أزمة هي «الاضطراب البلوغى» Trouble Pubertaire، وغالبا ما تكون فترة من القلق يبدو فيها الجسم مخلعًا والمزاج منحرفًا، ويشعر فيها الصبيان والبنات بإحساس التقدم في تعثر نحو مستقبل غير مضمون.

ثم يزداد الكيان رسوخا، والحياة الفكرية ثبوتا، وينمو الاهتمام بالمهنة التي سيتخذها الفرد لنفسه، وفي معظم الأحيان تكون فترة التمرين قد بدأت فعلا؛ وتزيح المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية العمل المدرسى إلى المرتبة الثانية إذ إن الحياة تحتاج إلى نشاط متعدد الجنبات، وتترعرع العواطف كأشجار

الخوخ في شهر أبريل، ويتحول البالغون بعدما كانوا يحسون به من قلق وضيق إلى شباب ينظر إلى المستقبل في شغف ويفتح أجنحة خياله لآفاق الأمل. وتستمر هذه المرحلة من سن السادسة عشرة إلى حوالي سن العشرين[1]، وهذه هي مرحلة «فورة الشباب» Exaltatiou juvenile التى عرفها أفلاطون «كنشوة ذهنية»، سرعان ما يعلن بعدها الشاب عن إقامة بيته ونشاطه المهنى والإسهام في شئون المدنية، إذا لم يكن قد تم له ذلك فعلا، ويدل هذا على قدوم سن النضوج.

● أخطاء يجب تفاديها: ولنحذر أول هذه الأخطاء: وهو الاعتقاد بأن المعلومات الخاصة بمدى وتطور المراهقة لها قيمة مطلقة. ولعلك تعرف شبابا، وبخاصة من الفتيات ذات المستوى المتواضع اللائى تظهرن كما لو كن يسرعن بالانتقال من الطفولة لحالة النضوج اللائي قد يصلنها في سنة السابعة عشرة؛ بينما هناك شباب آخر، خاصة في بعض الطبقات الميسورة، يتمهل عن طيب خاطر في اجتيازه لحالة المراهقة، فلا يكون هؤلاء الشباب رجالا حتى سن الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين. ولما كان البلوغ قد يسبق أوانه إلى حد ما، كانت المراهقة على العكس من الطفولة، ذات مدى قد يصل إلى الضعف في حالات متطرفة.

وكذلك تلازم مظاهر المراهقة تغيرات محسوسة تبعا للجنس أولا؛ فإذا كانت كلمة «طفل» تستعمل للذكور والإناث على السواء، فإن روح الشاب تختلف عن روح الشابة. وثانيا تبعا للوسط، فإن سلوك تلميذ المهنة يختلف في عدة نواحى عن سلوك الطالب. وثالثا وأخيرًا، تبعا للتكوين والحالة المزاجية، فليس هناك تاريخ واحد لنمو الشباب، بل توجد تواريخ، وهذا ما دعانى للاعتقاد بوجود عدة «أنماط للنمو؛ وحتى في هذه النظرة السريعة الشاملة التى أحاول تقديمها لك هنا، أجد نفسى مضطرًا – مع تأكدى من وجود سمات عامة لكل المراهقين – لإقامة فوارق حتى لا أستسلم إلى الاتجاه الذى نصادفه حتى في أكثر الأبحاث جدية، وهو الاتجاه الذي يعتبر الفكرة الجزئية فقط عن الشباب حقيقة كاملة.

---

(١) وكثيرا ما يمتد الشباب إلى سنوات النضوج الأولى، أى إلى سن الخامسة والعشرين أو الثلاثين، وحتى إلى ما بعدها، وهنا تضيع معالم هذه الفترة ولكننا نتحدث هنا عن «شباب المراهقة» La Jeunesse adolescente.

فإذا ما سرنا بهذا الرأى إلى أقصى حدوده، يمكننا القول بوجود مراهقين، لا بوجود مراهقة.

والخطأ الثاني هو الاعتقاد بتغير الشباب تبعا لمراحل مختلفة بنفس سرعة «الموضة»، وهكذا كان الحديث عن شباب عام ١٩٥٠، وشباب عام ١٩٧٠ أو «شباب ما بعد الحرب»، وشباب الأزمة الاقتصادية العالمية؛ وعندنا أيضا دراسات كثيرة عن شباب ما بعد عام ١٩٧٠، ومن الأمور المسلم بها أن الشباب يعكس أهواء عصره إذ إنه أكثر من غيره تفتحا للمؤثرات الاجتماعية الجديدة، ومع ذلك يعتبر الاعتقاد بأن الشباب مجرد شخص واحد في ثياب مستعارة متلاحقة، وأن كل جيل له «شبابه» الذي يختلف تماما عن شباب الجيل السابق، خطأ يقع فيه رجل الأخلاق الهاوى المتسرع، وقد تتمثل المراهقة المعاصرة في صورها الحديثة، فهناك الرياضي الشاب الذى يعدو في خطوات رشيقة على أرض الملعب، والكشاف الذى يتزين بالشعارات الغربية ويعسكر في خيمة أمام النار في خلوة الغاب، والشابة ذات الشعر القصير التى تحب الرياضة وتصافح في قوة بيدها، ولكن خلف كل هذه الوجوه المتغيرة للشباب، يوجد شباب أزلى يتشابه دائمًا مع نفسه على مر العصور باتجاهاته وقوانين نموه وطريقته في تفهم عالم الأشياء والكائنات؛ وهذا الاستمرار هو الذى يجب أن يلاحقه بالكشف والتعريف.

● المظاهر المختلفة لعالم المراهقة: ولما كانت المراهقة قطاعًا من حياتنا يظهر كحقيقة كاملة ومعقدة، أو كعالم غير مغلق طالما أنها تتصل بالطفولة التى تسبقها وسن النضوج الذى يليها، فإنها تنتظم في حركة خاصة بها، ويمكننا دراسة المراهقة من وجهات نظر مختلفة، فهناك البيولوجيا وعلم النفس والتربية، وكذلك علم الأخلاق الخاص بالمراهقة. وهكذا يجب علينا، لكى نلم تمامًا بالمراهقة، أن نستعرض كل جوانب هذه الحقيقة، ولكن الدراسة النفسية تظل عملنا الأساسى، ولا بد أن تكون قد تصورت هذا دون عناء، على أن تستكمل هذه الدراسة بالمعلومات التى تمدنا بها العلوم الأخرى.

وهذا هو مجال المراهقة كما حددنا إجمالا، وكما سنرتاده فيما يلى:

٢- كشف حديث معقد:

المعرفة التقريبية بالمراهقة: ما زلت أتذكر يا صديقى صورة مظهرك المرتبك وأنت تسألنى عن مشاكل المراهقة وكأنما كنت تعتذر عن نقص معلوماتك، ولكن هذا ليس خطأ لا يغتفر، بل هو خطأ ينتشر بين غالبية المثقفين، فإن الدراسة المنهجية لهذه الفترة من الحياة لم تبدأ إلا منذ نصف قرن، وهي دراسة حديثة معقدة لا يعرفها الناس بعد جيدًا.

ولكن هل يعنى هذا أنه قبل عام ١٩٠٠ لم تكن هناك أية معلومات عن المراهقة؟ لا، ولكن كان يكتفى بعدة مبادئ تجريبية يمتلكها كل شخص ناضج يفكر، فكل منا يحتفظ في الواقع بذكرى مراهقته، وكذلك بالخبرة التى أمكنا الحصول عليها من اتصالنا المباشر بالشباب، وأخيرًا بالصورة التى يقدمها لنا الكتاب عن الشباب. وهذا ما يمكن أن نسميه بالمعرفة التقريبية، وتتميز عن المعرفة العلمية التى اقتصرت حتى أواخر القرن التاسع عشر على نتائج بعض الأبحاث الطبية.

ويتذكر الإنسان شبابه، ولكنه في الواقع يتذكر الأحداث أكثر من الحياة التى كان عليها آنذاك. ولا تمدنا الذكريات إلا بصورة مشوهة براقة عن الماضى، كما أن النضوج باهتماماته ومشاغله يحجب عنا المرحلة التى سبقته ويمنعنا من تفهم أطفالنا إذا ما كبروا. وقد تقينا الخبرة الشخصية الهفوات الكبار التى قد نقترفها في حقهم عندما نفاجأ بقول منهم أو حركة تصدر عنهم، إذ سرعان ما يعن ببالنا هذا السؤال «ألم نكن مثلهم في الماضى؟» وتطمئنا هذه الخبرة بعض الشىء، ولكنها لا توفر لنا المعرفة التى نحتاج إليها.

والاتصال بالمراهقين أكثر فائدة لأنه يسمح لنا بالحصول على خبرة أكثر موضوعية، وهكذا يتمكن كل مدرس من الحدس بالحالة الذهنية التى يكون عليها التلاميذ الكبار الذين يجذبهم إليه، ولكن هذا ليس سوى «حسن تصرف» أو نوعًا من البداهة التى لا يمكن الاعتماد عليها والتى تقوم شيئًا فشيئًا بعد عديد من الفترات والأخطاء السابقة!.

وكذلك لا يمكننا التغاضى عما جلبه لنا الأدب، إذ لم ينتظر الشعراء والروائيون وكتاب المسرح حتى عام ١٩٠٠ لكى يعالجوا في كتاباتهم نوعًا من التمهيد لعلم نفس الشباب، وقد يبدو أنَّ جهلنا يتبدد إزاء الصورة الخالدة التى تمر أمامنا أحيانًا في ثنائيات مثل باولو وفرنشيسكا وروميو وجوليت وبول وفرجينيا، وأحيانًا تبرز فرادى مثل إفيجينى في أوليس لاريديب، وناوسيس لأوفيه، وشاروبيم لبومارشيه وفرتر لجوته. وربما لا زلت تحتفظ في ذاكرتك بالأبيات الشعرية التى تغنى فيها هوراس بالشباب في لوحة تمثل المراحل الأربع التى يمر بها الإنسان.

ومن منا لم يستسلم لسحر المراهقين الذين صورهم روفاييل أو المصورون الإنجليز في أوائل القرن التاسع عشر؛ ولكن الإبداع الفنى مهما بدا لنا رائعا، لا يعطينا سوى تفسير ذاتى مثالى للمراهقة.

وقد نلجأ إلى رجال الأخلاق والفلاسفة، فقد أحيا لنا أفلاطون من بين القدماء صورة تلاميذ سقراط من الشباب في «محاوراته»، كما عرف العلامة أرسطو الشباب في صفحة شهيرة مؤثرة بما فيها من حذق وفطنة فإذا ما اقتربنا من عصرنا الحديث، استعدنا العبارات التى أوحى بها الشباب إلى بوسويه في «مرثية القديس برنار»، وإلى جان جاك روسو في الكتاب الرابع من «إميل» حيث يتغنى الكاتب بأسرار هذه «الولادة الثانية» ويعنى بها البلوغ، ولكننا لا نجد عند هؤلاء المعلمين إلا بيانات مقتضية أو رؤى جريئة لا تتصل كفاية بالخبرة الحية، ومع ذلك يمكن أن نعتبرهم روادًا أوائل لما نسميه، الهيبيلوجيا Lahebelogie أو علم الشباب.

مولد علم الشباب: يمكننا أن ننظر إلى المقال الذى كتبه برنهام W.H. Burnham بعنوان دراسة في المراهقة The study of Adolescence ونشرها في الولايات المتحدة في عام ١٨٩١، كنذير للباحثين الذين هبوا للكشف عن المراهقة.

وكانت اللحظة مناسبة، إذ كان علم النفس يتمتع آنذاك بانطلاقة كبيرة

بفضل التأييد الذى أعطاه له كل من علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلم الاجتماع، فكان الأول يسمح بدراسة الأسس العضوية للحياة الفكرية بينما يدرس الثانى الأسس الاجتماعية لهذه الحياة. وهناك أمر آخر أكثر أهمية، إذ أعطت العلوم البيولوجية، بعد الأبحاث التي قام بها لامارك Lamarck وجوفردى سان - هيلير Geoffroy s int - Hilaire وداروين Darwin الأولوية لنظرية التطور من خلال تاريخ النوع، وكذلك من خلال تاريخ كل فرد؛ وهكذا أخذ كل ما هو سابق على الرجولة، أو «ما قبل الرجولة» إذا أمكننى استعمال هذا الاصطلاح، أهمية كبرى، فقام الفكر البيولوجى ليبعث الحياة في البحث النفسى. وبعد ظهور كتاب برلير Preyer بعنوان «نفس الطفل L' Am de I'enfant» في عام ١٨٨١، قام علم نفس للطفولة مع بالدوين J, M. Baldwin وجيمس سولى James Sally وستانلى هل Stanley Hall، فقد أحس هؤلاء بوجود حقيقة يجب الكشف عنها، كما أعلن روسو قبل قرن من ذلك التاريخ.

وكان تسمية «الطفولة» عندئذ تطلق على كل الفترة التى تمتد قبل سن النضوج وتعتبر المراهقة الفصل الأخير منها. ولكنا نلاحظ أنَّ تفرقةً أكثر وضوحًا أخذت تفرض نفسها بسرعة، وأن جماعة من علماء النفس كانوا يلتفون حول ستانلى هل عكفوا على دراسة المراهقة دراسة علمية، ومع ذلك ستظل المراهقة لفترة طويلة نهبة بين مرحلتى الطفولة والنضوج. وما زال البعض حتى يومنا هذا يعتقد أنَّ الطفل يظل طفلاً حتى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، يتم بعد ذلك انتقال بسيط إلى سن النضوج، ولكن هذا التقسيم لا يمت للحقيقة بصلة، إذ إن الفرد يمر فيما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة أو العشرين بفترة من الحياة لها وحدتها وقوانينها ومشكلاتها ودورها.

وكان ضروريًا أن تحتل المراهقة مكانًا مرموقًا في دراسة النمو، أليست هي -كما يدل المعنى القديم للكلمة- «السن الذى يكبر فيه - الإنسان؟» وفى الواقع، يأخذ التطور بالنسبة لعلم الشباب، أهميةً أولية، إذ قد يمكننا أن نتحدث عن الرجل الناضج بعامة دون أن نهتم بالتغيرات التى يحملها إليه السن وقد يبدو سطحيًا أن نحلل نفسية الطفل بعيدًا عن لحظة معينة من لحظات نموه، ولكن

يكاد يستحيل علينا أن نحاول القيام بوصف تفصيلى للمراهقة دون أن نواجه التغيرات الدائمة التى تحدد حركتها ومن الطبيعى بعد ذلك أن يأخذ علم الشباب شكل التاريخ، وهذا ما وصل إليه ستانلى هل، ولذلك كان مؤلفه الرئيسى وعنوانه «المراهقة» وقد نشر في عام ١٩٠٥، تراثًا حقيقيًا كان له دوى عالمى، وكان يقوم على فكرة التطور، وضاعف تلاميذه لانكستر **Lancaster** وبارتريدج **Partridge** وسويفت **Swift** من ملاحظاتهم وأبحاثهم حتى عمموا تأثير أستاذهم على أوربا كلها.

● صعوبة دراسة الشباب: ولعلنا ندرك الآن لما كان الكشف عن المراهقة حديثًا، فقد نشأت هذه الدراسة، كما حدث عند الكشف عن الطفولة، كنتيجة لانطلاقة العلوم البيولوجية. وما كان لها أن تقوم قبل ذلك، ولكن رغم ما أجرى فيها من أبحاث عديدة، لم يكن التقدم فيها سريعا، وهكذا لا نعرف الآن المراهق جيدًا كما نعرف الطفل. فلماذا تصعب بنوع خاص الدراسة النفسية للشباب؟ وهذا ما حاولت تفسيره في مكان آخر[1] ولكنا نعيد إلى الأذهان فقط أن المراهقة سن مغلقة، تنعم بما هى عليه من سرية، وتهرب من السؤال أو تعطى إجابات علينا أن نتحقق من صحتها، كما أنها سن متقلبة قد يخذل السلوك فيها أكثر المراقبين دقة، وأنها أخيرًا تسيئ فهم نفسها عن غير قصد أو تعمد.

وقد ظهرت هذه الصعوبات من قبل في كتاب ستانلى هل، الذى يبدو رغم ثرائه بالمعلومات كبحث ناقص ليس له دائما نفس القيمة. وقد أتاح اتساع فضول الباحث الأمريكى له فرصة جمع نقاط عديدة يمكنه البدء منها، ولكنه لم يحقق له إلا القيام بتخطيط أولى للموضوع. وقد يعن بخاطرنا ونحن نقرأ مؤلفات هذا الباحث، الرحالة ليفنجستون وهو يرتاد القارة السوداء، فبد كان –والحق يقال– مكتشفًا يقوى على تخطى العقبات ومواجهة المشكلات وتكديس العديد من الملاحظات التفصيلية خلال ما قام به من جولات.

(١) في كتاب «كيف ندرس المراهقين» **Commente tudier Les adoscents** للمؤلف.

ومن بعده امتدت الرغبة في التعرف على الشباب إلى كل البلدان المتحضرة ولكن هل كان ذلك اهتمامًا علميًا؟ لا شك في هذا إذ كان هناك من الظروف والأسباب ما يهيئ الفرصة للعمل من أجل هذا الكشف. فقد أدت ضرورة توجيه الشباب إلى مهنة تتفق واستعداداتهم إلى ظهور التوجيه المهنى، كما استوجبت معايرة التجارب أو «الاختبارات» العديدة التى تساعد على التعرف على ذكائهم وشخصيتهم. وكذلك أدى وجود الانحراف بين الشباب وزيادة الإجرام المبكر المرتبط باتساع المدن وحركة التصنيع إلى اهتمام علماء النفس بدراسة هذا العالم الخاص على أمل العثور على دواء ناجع يقومون به هذه الطبائع المنحرفة وبالإضافة إلى ذلك كان في قيام حركات الشباب التى ولدت مع القرن العشرين في إنجلترا وألمانيا ما يلفت النظر إلى الحياة الاجتماعية للشباب وما يسمح بمواجهة مشكلة التربية بأسلوب جديد. وقد حدس - ولا نقول تعرف - رواد هذه الحركات الأوائل وجود مظاهر خاصة بعقلية الشباب، وبذلك أسهموا جديًا في الكشف عن المراهقة. وأخيرًا كان الاهتمام السياسى الكبير بهذا السن، وبخاصة منذ الحرب العالمية الأولى، فقد أتاحت الأجيال الشابة في البلدان التى عرفت القلاقل الداخلية مثل ألمانيا وروسيا وإيطاليا، فرصة قيام أنظمة جديدة، وكان السبيل إلى ذلك الاستعانة بالخصائص المفضلة عند الشباب وهي الحماس وحب التجديد وإنكار الذات.

وقد أفادت دراسة الشباب من كل تقدم عرفه علم النفس العام وبخاصة في مجال التحليل النفسى وعلم الخلق وعلم النفس الفنى، وكذلك من تقدم البيولوجيا والطب وبخاصة بالانتصارات في علم الغدد الصماء، وبفضل هذه الانتفاضة المزدوجة، زادت دراسة الشباب في ميدان عملها وحسنت أساليبها فأضافت إلى الملاحظة والبحث، دراسة كراسات الاعترافات وتاريخ الحياة والاستعانة بالاختبارات والطرق أكثر دقة في القياس البيولوجي، وكانت أمريكا تعتبر دائمًا المركز الرئيسى لهذه الأبحاث، ولكن منذ عام ١٩٢٠، اشتدت موجة البحث في

البلاد التى تتكلم الألمانية بفضل سترن وسبرانجر وبوهلر، وتقل حدتها في إنجلترا وفرنسا والبلاد المتحدثة بالفرنسية وكذلك في أقطار البحر المتوسط.

ولم ينته العمل بعد، فما زلنا نجد في خريطة المراهقة ما نجده في خرائط أفريقيا من «فراغات» لها مغزاها، كما أنه لا يمكن التوفيق تمامًا بين كل الخرائط الموجودة، وهذا يعنى بلا شك وجود أخطاء إلى جانب الفراغات التى لا يمكن التجاوز عنها، وربما تؤدى الأبحاث الحديثة إلى تصحيح جاد ولكن لنحذر السراب وسلاسل الجبال الوهمية والأنهار الخفية مثل النيجر عند علماء الجغرافيا في القرن الثامن عشر!..

منهج البحث:

ورغم وجود هذا النقص الذى رأيت من الضرورى عدم التغاضى عنه، فقد تقدم البحث حاليًا بما فيه الكفاية حتى أنه يكاد يعطى فكرة دقيقة عن هذه الفترة من الحياة.

وهكذا تكون علم الشباب وهو علم حديث، وسنتتبع خطوات الساعين للكشف عن المراهقة وهى مملكة من أجمل الممالك التى قامت تحت الشمس، وسنسلك في ذلك سبلا عديدة تؤدى إلى حد ما إلى الاهتمامات المتلاحقة التى تثيرها المراهقة منذ نصف قرن.

فقد كان الاهتمام أولا بالبلوغ وبالحياة العاطفية عند الشباب، وهى أكثر المظاهر وضوحًا في المراهقة وبعد ذلك كان تفتح الحياة الاجتماعية وتعلم المهنة ثم تأكيد الخلق وتكوين التفكير الشخصى، تستحوذ على اهتمام أكبر. وأخيرًا كان التعرف على قيم الحياة اتجاهًا جديدًا للبحث، وسيؤدى بنا هذا الاتجاه في خاتمة هذا الكتاب، إلى التعرف على ما يمكن تسميته بمهمة المراهقة.

ولا تعتبر كل هذه السبل مرحلة محددة في البحث، فقد كان الاهتمام بالحياة الاجتماعية منذ عصر ستاتلى هل، كما أن الأبحاث في البلوغ، رغم أنَّها كانت أول ما أجرى من أعمال قام بها العالم الفسيولوجى مارو **Marro** لا تزال حتى يومنا هذا محورًا للبحوث البيولوجية. وسيجعلنا كل من هذه الطرق نلم

بواحد من مظاهر المراهقة المختلفة. وسنبدأ بأكثر الأماكن وضوحًا كى نصل إلى مناطق قل ارتيادها أو صعب وصفها. وهكذا لن نكون أمام تخطيط تاريخى لمراحل علم الشباب، بل أمام رحلة تسير في سبل متنوعة تسمح لنا بالكشف شيئًا فشيئًا عن حقيقة معقدة، متحركة، هى عالم الشباب.

ولا يجب أن نحاول ذكر كل شىء في مثل هذا العمل الأولى، أو حتى تلخيص، ولكنى أجتهد فقط للفت نظرك إلى ما يبدو لي جوهريًا. ومع أنى اعتمدت على الأبحاث التى نشرت بخاصة خارج فرنسا. لن أذكر من أسماء المؤلفين إلا القلة حتى لا أثقل النص بها وأخيرًا لا يفوتنى أن أقول إن لهذا الموضوع أهمية دائمة، بل إن له، في الظروف القاسية التى نمر بها الآن أهمية خاصة، ولهذا لن أتردد خلال هذا الكتاب في استعراض المشكلات الرئيسية التى تقوض إعداد الشباب ومستقبله.

وقصارى القول، فإن هذه النظرة الأولية تبين لنا أنه قد طال الجهل بالمراهقة. أما اليوم فإنها تثير اهتمامًا كبيرًا لدى جمهور يزداد اتساعا كما يحدث عند اكتشاف قارة جديدة، فإنَّ كُتَّاب القصة كثيرًا ما يسعون إليها للبحث عن شخصيات لرواياتهم، وكذلك يعتمد عليها رجال الحكومات، ويمجدها الصحفيون عن طيب خاطر، حتى تكاد تحاط المراهقة بهالة من التقديس. ولكن يبدو لى أنه يجدر بنا أولا أن ندرسها حتى يمكننا أن نحكم بطريقة صحيحة على مدى إمكانياتها، أليس هذا ما تراه أنت أيضًا؟.

هيا بنا إذن نبدأ الرحلة.



الفصل الثانى

المسارات الأولى

١- انتفاضة الجسم:

عندما تنطق أمامنا كلمة «مراهقة» يخطر ببالنا لأول وهلة نمو الجسم الذى تزداد سرعته، وكذلك التغيرات الداخلية التى ستجعل الكائن الحى قادرًا على القيام بمهام النضوج، وهذه هي «انتفاضة الجسم» التى تسترعى انتباهنا في أول الأمر، وهكذا تكون الطريق الأول الذى نطرقه. ولكنا سنجد أمامنا كذلك طريقا آخرًا مضادا، إذ يتجدد الإحساس في هذا السن بالحب والانفعالات، ويصير حتى عند ذوى الطبيعة المثابرة، محورًا أساسيًا للنشاط النفسى وهكذا ترتبط انتفاضة الجسم «بانتفاضة القلب».

ولا يقترب هذان الطريقان بمحض الصدفة، بل إنَّ تجاورهما لا يفيد إلا في إبراز مدى ارتباط الحياة العضوية بالحياة العقلية، وهذا ما يوجد أيضًا في كل مرحلة من مراحلة الحياة، ويعبر ظهور الغريزة الجنسية، وهى غريزة جوهرية تقع على الحدود الفاصلة بين الجسم والنفس، عن الوحدة بين الانتفاضتين.

ومن السهل أن نلحظ ما يمثله نمو الجسم فى المراهقة. فعلى شاطئ البحر حيث تقيم للاستجمام، ترى أخوان في لباس الاستحمام. انظر إليهما جيدًا، فإنَّ أكبرهما يكاد يكون في العشرين من عمره بينما الأصغر يناهز العاشرة. ويختلف جسماهما في الطول والبنية والنسب كما تتعارض المشية الوثابة عند أصغرهما مع المشية المرنة المستطيلة عند الآخر. وتتناقض كذلك الأشكال الدائرية غير المحددة عند الطفل مع وجه أكثر تعبيرًا وعضلات أكثر وضوحًا عند الشاب. وبينما هما يتحادثان. يتناوب في حوارهما صوت طفلى حاد ورفيع وصوت آخر خشن يصاحبه قرار خفيض.

فإذا واجهنا النمو العضوى عن قرب، لميزنا له في الجسم ما يسمى فقد وايزمان Soma، أي الغلاف الجسمى الذى يولد ويكبر ثم يموت، وأيضًا

Germen أي الخلايا التناسلية التى لا تموت أبدًا، إذ إنها تستمر بالإخصاب عبر الأجيال المتعاقبة.

سن الملابس القصيرة جدًا: والمراهقة سن الملابس القصيرة جدًا، وهذا ما يعنى بعبارة أخرى تزايد سرعة طول القامة. فالطفل يكبر بسرعة كبيرة في أول الأمر: فيتضاعف متوسط طول القامة فيما بين الولادة وسن الخامسة، ثم تدل منحنيات الإحصاء على تناقص هذه السرعة حتى تبلغ الحد الأدنى عند سن العاشرة وبعد هذه «الراحة»، ينتفض النمو من جديد في حوالي السنة الثانية عشرة عند الولد، وقبل هذا بسنة تقريبًا عند الفتاة. وتبلغ زيادة طول القامة ما بين ٢٠ سم و ٢٥ سم، وهذا قليل بالنسبة للنمو في مجموعه، ولكنه يدهشنا لأنه يظهر لنا كنوبة مفاجئة سريعة أحيانا. وقد تحدث خلال عدة شهور في أثناء مرض طويل مثلا - زيادة تقدر بعشرة سنتيمترات وأكثر، قد تمتد في أحيان أخرى على مدى عدة سنوات. ويلاحظ جودان Godin أن النمو لا يعرف مطلقًا الانتظام، فهو متقطع بدرجات متفاوتة ويبدو إيقاعه مرتبطًا ليس فقط بالمزاج الفردى، بل أيضًا بظروف الوسط الخارجي، كما أنه يكون أكثر أهمية في الصيف عنه في الشتاء.

ويُغير النمو كثيرًا من نسب الجسم، فللطفل رأس كبير على جذع وأطراف قصيرة نسبيا. أما في بداية المراهقة، فتطول الساقان بسرعة حتى إن عددًا كبيرًا من الشبان يبدون وكأنهم يسيرون على عكاز، وتزداد سرعة الحركة في منطقة المفاصل حتى إن الجلد يكاد لا يصل إلى نفس النمو، فتحدث عند الركبتين انتفاخات تُظهر شرائحًا عرضية من الجلد أكثر شحوبا، وتسمى «تشققات النمو»، ثم ينمو الجذع بدوره بسرعة حتى يصل إلى شكل الشخص البالغ، وفيه تكون العلاقة بين الأطراف السفلى وباقى الجسم - كما يقول تقرير مانوفرييه Manouvrier أقل قليلا من الواحد الصحيح. وهذا التناوب يوجد في كل جزء من الهيكل العظمى، فيطول أو يزيد عرضه على التوالى.

ولكل جزء في الأطراف سرعة نمو خاصة به: فتكبر الأيدى والأقدام عادة

أسرع من باقى الذراع أو الساق، وينتج عن هذا ثقل عرضى في الحركة. وتبدو الرأس كما لو كانت قد أفلتت من هذا النمو الجسمى: فإن حجم الجمجمة يزداد ببطء، وهكذا يكون غطاء الرأس هو القطعة الوحيدة من الملابس التى يمكن استخدامها من سنة لأخرى.

وهذه هى الدفعة «الأخيرة» في الهيكل العظمى إذ تقل الزيادة في الطول في حوالى السادسة عشرة وخاصة عند الفتاة وعند سن العشرين، تقل كثيرًا جدًا إذ لا تقوى العظام على النمو عندما يختفى غضروف المفصل، وهذا ما يحدث فيما بين سن العشرين والخامسة والعشرين، فتأخذ عظمة الفخذ مثلا شكلها النهائى في حوالى سن الثانية والعشرين.

ويظهر نمو مماثل في بعض الأحشاء، إذ يبلغ معظمها الحد الأقصى من الثقل عند المراهقة: وهذه هي الحال بالنسبة للكبد. وأسرع نمو يقع في القلب الذى يكاد يتضاعف حجمه فيما بين سن الثانية عشرة والسادسة عشرة، وفي نفس الوقت يزداد التوتر الشريانى، كما يصل القلب إلى وزنه النهائى تقريبا وهو ٠,٥٢٪ من الوزن الكلى للجسم. وعلى العكس من ذلك. يكاد المخ - الذى يبلغ ثلاثة أضعاف وزنه في السنة الأولى من الحياة - لا ينمو بعد السنة الرابعة عشرة من العمر، ويكون متوسط وزنه فيما بين سن الرابعة عشرة والعشرين ١٣٧٤ جم عند الأولاد، ١٢٤٤ جم عند البنات ثم يتناقص قليلا.

وتتغير إيقاعات الحياة كذلك، فتنخفض ضربات القلب التى كان عددها ١٣٥ عند الولادة إلى ٩٠ قبل المراهقة مباشرة، ثم إلى ٧٥ عند الولد و٨٠ عند البنت، ويتنفس الشاب بسرعة أقل من سرعة تنفس الطفل، ولكن القدرة التنفسية التى تلاحظ من خلال جهاز قياس النفس تزداد بشدة فيما بين سن الرابعة عشرة والسادسة عشرة: وهذه هى إحدى الدلائل الهامة للحيوية.

وتثبت ملامح وجه الشاب وتحدد معالمه، فتكبر الأنف عادة بسرعة أكبر من باقى أجزاء الوجه ويزيد عرض الفك ويتغير لون البشرة ويصبح أكثر نقاءً عادة. وتبدأ حدود الشعر على الجبين في فقدان انحناءاتها الطفلية، ويظهر تراجعان

خفقيفان في أعلى الوجنتين. ويقل تغير ملامح الوجه عند الفتاة المراهقة، فتحتفظ باستدارتها، ولكنها تزداد رقة وتصبح أكثر تعبيرًا.

وتفوق زيادة وزن الجسم زيادة للطول، ويزداد الوزن في الجنسين في حوالى سن الثانية عشرة، فبينما كانت الزيادة السنوية تتراوح بين كيلو جرام واحد أو كيلو جرامين، ترتفع إلى أربعة أو خمسة كيلو جرامات فيما بين الثانية عشرة والسادسة عشرة. ويختفى الشحم المخزون الذى كان يوجد قبل البلوغ بينما تقوى العضلات بسرعة، وترتفع القوة العضلية التى تقاس بالدينامومتر إلى ثلاثة أضعافها وتبلغ منتهاها فيما بين سن الخامسة والعشرين والثلاثين، ولكن هذا التقدم يكون أسرع بكثير عند الشاب منه عند الشابة: ففي سن الثانية عشرة تكون قوة الأول معادلة لضعف قوة الثانية. وتقوى الأطراف السفلى في البداية ثم يأتى دور الظهر والذراعين: فمثلا تتضاعف صلابة قبضة اليد فيما بين سن الرابعة عشرة والسابعة عشرة.

وفي نهاية المراهقة، يمكن القول أن الجسم قد تجاوز حالة الطفولة إلى حالة قريبة من النضوج، فقد وجد أنه ابتداء من سن السابعة عشرة، لم يبق للولد إلا أن يحصل في المتوسط على $\frac{١}{١٠}$ قامته و $\frac{١}{٣}$ وزنه كى يصل إلى حالة النضوج.

الأنماط الشكلية: تتراوح أهمية النمو تبعًا للأفراد، فعادة ما يصبح الأطفال الطوال بالنسبة لسنهم رجالا ذوى قامات عالية، وقد ينقلب النمط الشكلى عند البلوغ، ولكن هذه حالة نادرة عند السويين من الأفراد، إذ تتحدد فيهم معالم النمط فقط. ومنذ ربع قرن، قامت محاولات لدراسة الأمزجة والتكوينات من خلال نسب الجسم حتى يتسنى الوصول إلى تصنيف للأفراد وهكذا فرق كريتشمار **Kretschmer** بين نمط رفيع طويل أسماه «الواهن **Leptosome**» ونمط قصير سمين أسماه «البدين **Pycnique**» ففى النمط الأول يبالغ النمو البلوغى عادة من النحافة، وتضيق الأكتاف وتضمر الأطراف وينحف الوجه ويطول: وهذه هي مجموعة «الواهنين» الضعاف ذوى الحركات المفككة. وهناك آخرون ينتمون

أيضًا إلى النمط الطويل ولكن لهم طبيعة أكثر قوة، فيزيد نمو عضلاتهم، وتكون رقبتهم أقوى وأكتافهم أعرض، ويكونون مجموعة المراهقين «الرياضيين Athletiques» وينالون حظوة كبيرة في الملاعب الرياضية وعلى العكس من ذلك يظل النمط البدين مكتنزًا بالرغم من النمو البلوغي ويحتفظ بوجهه الطفلى الضخم المورد وبأطراف سفلى أكثر قصرًا من باقى أجزاء الجسم. ويوجد أخيرًا من بين الشباب من لهم نمو لا يتم بطريقة متسقة وهؤلاء هم «dysplasiques» ولكن حالتهم هذه يختص بها علم الطب وحده.

وهذه الأنماط الشكلية المختلفة، وبخاصة النمط البدين منها، لا تصل إلى نموها الكامل إلا عند النضوج. ولكنها تتميز عن بعضها البعض منذ المراهقة، ونضيف أيضا أنها تكون أكثر وضوحا عند الرجل عن المرأة.

البلوغ: وإلى جانب التغيرات الجسمية التى تختص بها البنية، توجد تغيرات ترتبط بتطور الخلايا التناسلية وهى أكثر أهمية وتحدد ما يسمى بالبلوغ، وإحدى العلامات المميزة له هى ظهور الشعر خاصة في المنطقة التناسلية، فليس للطفل عدا فروة شعر الرأس إلا بعض الزغب الناعم. وفى حوالى الثانية عشرة، ينمو عند الفتاه، وبعد ذلك بسنة واحدة عند الولد، شعر في العانة، ينثر عليها في أول الأمر ثم يزداد كثافة فيما بعد. وتمر سنة أخرى قبل أن يظهر شعر الإبطين، كما يغزر شعر الحاجبين. وفي حوالى سن السادسة عشرة يظهر ظل شارب فوق الشفة العليا ويغزو الشعر الذقن أيضًا حتى يضطر المراهق لحلاقته، ويعتبر هذا حدثًا في حياته يسبقه تفكير وتردد. ولكنه ما أن يتخطى هذه العقبة حتى يشعر أنه قد صار رجلا.

ويعرف الولد تجديدات أخرى، فيقلق لظهور بقع سوداء على جلده وبخاصة حول أنفه وعلى ذقنه أو على كتفيه وتزداد إفرازات الغدد الدهنية وتسد بعض مسام الجلد. ومن هنا كان حب الشباب، وهو شائع، ولكن ليس له عادة من خطورة إلا في نيله من اعتداد الشاب بنفسه ويعتبر تغير الصوت أيضا حدثًا هاما. ويختلف توقيته تبعًا للجنس وللمناخ، فتنمو الحنجرة عند البلوغ وتبرز

تفاحة آدم ويزيد طول الأحبال الصوتية فيأخذ الصوت -وكان من قبل حادا- نبرة خشنة غير مستحبة، وتستمر عدة شهور ثم تنخفض حدتها خلال عدة أسابيع، وأخيرًا تثبت، وفى حوالى سن السابعة عشرة، تختفى آخر الاضطرابات الملازمة لهذا التغير. ويتغير صوت المرأة أيضا، ولكن بطريقة تكاد تكون غير محسوسة، وتثبت نبرته المعبرة في حوالى سن الخامسة عشرة.

ويكمل البلوغ الأنثوى من جانبه بنمو الثديين والحوض، فيتكور الثديان منذ سن الثانية عشرة ثم يأتى بعد ذلك دور الحلمات بينما تكون المجارى اللبنية والغدد المفرزة للبن، أما عند الشباب فيقتصر الأمر على مجرد انتفاخ بسيط والإحساس ببعض الحكات الخفيفة. ويلاحظ اتساع حوض الفتاة فيما بين سن العاشرة والخامسة عشرة، ويزيد محيطه بحوالى العشرين سنتيمترا، وهذا ما يعطى لجسم الأنثى شكله المميز.

وتسمى كل هذه التغيرات الشكلية «بالخصائص الجنسية الثانوية» على عكس الخصائص الجنسية الأولية التى توجد منذ الولادة، وتعلن عن قدوم ظاهرة هامة وتعبر تعبيرًا أساسيًا عن البلوغ بقيام الوظيفة التناسلية عند نضج الخلايا التناسلية وهى «البويضة» أو الخلية الأنثوية والحيوان المنوى، أو الخلية الذكرية.

والحدث الهام لدى الفتاة هو ظهور الطمث الأول في اللحظة التى تبدأ فيها الدورة الشهرية لنمو البويضات، فإن البويضات التى توجد في المبيض منذ المرحلة الجنينية، تتحول أثناء الطفولة إلى «حويصلات جراف» التى تحوى كل منها بويضة، وتعطى هذه البويضة التى تخرج أثناء الدورة التى تستمر حوالى ثمانية وعشرين يوما - إذا ما لقحت بالحيوان المنوى - بيضة هي أصل الجنين، ويعلن ظهور الدم الأول - وهذا ما يحدث بعد ذلك دوريا - عن نهاية دورة نمو البويضة.

ويختلف سن ظهور الطمث تبعًا لظروف عدة، ومتوسط هذه السن في فرنسا بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، ولكن هناك فتيات يحضن بطريقة طبيعية منذ سن الحادية عشرة، وأخريات عند سن السابعة أو الثامنة عشرة. وهناك حالات استثنائية تتخطى هذه الحدود بكثير، وتعتبر درجة الحرارة سببًا

رئيسيًا لهذا الاختلاف. والجنس سبب آخر، ففى الولايات المتحدة، تحيض الفتيات الهنديات قبل الفتيات البيض، والوسط الاجتماعى سبب ثالث، فسن الحيض يكون أكثر تبكيرًا في الطبقات الميسورة عنه في الطبقات الفقيرة، وفى المدن عنه في الريف، وهناك أسباب ذات طابع نفسى مثل القراءات والمشاهد الجنسية تعجل من ظهور الطمث ولا تعتبر نتائج هذه الدراسات مؤكدة، فقد كان من المعروف أن الفتيات في البلاد الحارة يحضن قبل فتيات البلاد الباردة، أى في سن الثامنة عشرة في منطقة لابونيا[1] وفي التاسعة أو العاشرة في الحبشة: ولكن وجد في بعض الأبحاث الحديثة ما يشير إلى أن التبكير يزيد كلما كان المناخ أكثر «إثارة» بمعنى ألا يكون حارًا أو باردًا على مدار السنة. وقد ظهر من الأبحاث أيضًا أن متوسط سن الطمث الأول قد أخذ في الانخفاض في الأجيال القريبة الماضية، كما حدث في هولندا والولايات المتحدة الأمريكية مثلا.

ولا توجد عند الولد علامة محددة تدل على ظهور الوظيفة التناسلية، وهى اللحظة التى ترى فيها حيوانات منوية في السائل المنوى، إذ إن عند البلوغ تنمو الخلايا التناسلية التى تضمها الخصيتان، وكانت من قبل في كمون خلال مرحلة الطفولة، وتفرز هذه الخلايا الحيوانات المنوية بصفة مستمرة.

وهكذا نجد أنَّ تكوين البويضة وإفراز الحيوانات المنوية حدثان أساسيان يرتبطان بالبلوغ ويصاحبهما نمو مواز في الغدد التناسلية، أى في المبيض عند الفتاة والخصيتين عند الشاب، وكذلك في الأعضاء التناسلية الخارجية. ويكاد ينتهى النمو الجنسى عند الفتاة في حوالى سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة، وعند الشاب في حوالى سن الثامنة عشرة أو العشرين، وهذا ما يمكن أن نسميه بالبلوغ الفسيولوجى المتوسط، ويختلف قليلا عن البلوغ الشرعى وهو في فرنسا في الخامسة عشرة بالنسبة للمرأة وفي الثامنة عشرة بالنسبة للرجل، ويرى علماء البيولوجيا أنه يجب الانتظار خلال أربع أو خمس سنوات أخرى بعد ظهور الدلائل الأولى للبلوغ قبل حدوث النضج الجنسى الكامل. وهذه الفترة تعبر عن الحد

---

(١) إقليم في أوربا يقع ضمن الدائرة القطبية وتقتسمه كل من النرويج والسويد وفنلندا وروسيا.

الأدنى للمدة المتوسطة للمراهقة من الناحية العضوية، وتزداد قصرًا كلما زاد سن النضوج تبكيرا.

دور الهرمونات والفيتامينات: اهتم العلم الحديث كثيرًا بفسيولوجية النمو، وهذا ما أتاح له فرصة تحديد دور الهرمونات والفيتامينات بوجه خاص.

وقد أثبتت الأبحاث البيولوجية التى أجريت منذ عام ١٩٠٠ أن الغدد الصماء تؤثر بشدة على النمو بالهرمونات التى تفرزها. وكان من أهمية هذه الهرمونات أن استطاع بند Pende تصنيف المراهقين تصنيفا يقوم على علم الغدد الصماء، وأهم هذه الغدد هى الغدة تحت المخية، والدرقية، والغدد التناسلية والغدد فوق الكلوية.

ويلاحظ أن الغدد ذات الإفراز الداخلى بوجه عام تتضخم خلال البلوغ، ما عدا الغدة التيموسية التى تأتى على العكس منها في الضمور. وفي نفس الوقت تصب هذه الغدد في الدم هرموناتها التى تبدأ في تنظيم المظاهر المختلفة لانتفاضة الجسم. ويحقق مجموع هذه الإفرازات اتزانًا مزاجيا جديدًا. وقد أمكن منذ عدة سنوات عزل هذه الهرمونات والاحتفاظ بها في صورة بلورات. ويؤثر بعضها على النمو الجسمى الخارجي. وبعضها الآخر على النمو الجنسى، ويكون تأثيرها أشبه بموجتين متعاقبتين متلاحقتين، هذا ما كان لنا أن نتحدث عن «الموجة» فيما يختص بالمواد الكيمائية التى تنتج بكميات ضئيلة. وهكذا يخضع طول الهيكل العظمى لتأثير الغدة الدرقية والغدة تحت المخية. ثم يبطئ النمو الجسمى ويصبح البلوغ ممكنًا بفضل تأثير نوع جديد من هرمون الغدة تحت المخية وهرمونات التناسل مثل الهرمونات الذكرية التى تفرزها الخصية والهرمونات الأنثوية التى يفرزها المبيض[1].

وتأثير الهرمونات أكثر تعقيدًا مما كان يتصور في الماضى، فنحن نعرف اليوم أن نفس الغدة، مثل الغدة تحت المخية مثلا، تفرز عدة هرمونات لكل منها

---

(١) ويمكن الرجوع في هذا الصدد إلى كتاب «النمو» تأليف مارسيل أبيلوس M. Abeloos من نفس هذه المجموعة.

دور خاص به، كما أثبتت التجارب أن كل هرمون يمارس تأثيرات مختلفة تبعا للقدر الذى يستعمل به. وقد أمكن كذلك التمييز بين عدة مركبات ذات تكوين متقارب، ولم يكن يرى فيها من قبل إلا جسم واحد، فمثلا إلى جانب الهرمون الأنثوى الذى ينظم ظهور الخصائص الجنسية الثانوية عند الأنثى (La folliculine) يوجد هرمون أنثوى آخر (La luteine) ويتدخل في النصف الثانى من الدورة الشهرية وهناك أمر آخر: فمع قيام التوازن بين الغدد الصماء، تؤثر في بعضها البعض، وهكذا نجد أن الغدة تحت المخية التى تبدو كما لو كانت قائدًا للأوركسترا، تؤثر على عمل هرمونات الغدد التناسلية، كما يرتد أى اضطراب فيها على حالة الغدة الدرقية. وأخيرًا توصل البيولوجيون عن طريق تجارب أجروها إلى الاعتقاد بأن التأثير الهرمونى يرتبط ارتباطا وثيقا بالجهاز العصبى المركزى. وهكذا نرى أننا بصدد نظام هرمونى كثير التعقيد[١].

ومهما يكن تعقيد دور الهرمونات فإنه لا يكفى وحده «لتفسير» انتفاضة الجسم، فإذا ما نقصت الهرمونات أو زادت، نلاحظ اضطرابا في النمو، ولذلك كان دورها ضروريا. ولكن لا بد لتأثيرها المنشط من أرض صالحة، ونعنى بذلك الأنسجة والأعضاء التى لا بد وأن تصل لدرجة كافية من «النضج» حتى يتسنى للتفتح العضوى من الحدوث بصفة مستمرة وفي حالة النمو الطبيعى، لا بد من توافق بين تأثير الهرمونات والوسط النسيجى الذى يهيئ الفرصة لهذا التأثير. وهكذا نرى أن الغدد الصماء ما هى إلا «منظمات للنمو»، لا السبب الحقيقى فيه.

ويقع نمو الجسم أيضًا تحت تأثير الفيتامينات[٢]، التى يستمدها بشكل كاف من التغذية الطبيعية، ولكن الظروف الحديثة للغذاء فى المدنية، خاصة ظروف سوء التغذية الناجمة عن الحرب، قد تؤدى إذ لم نولها كل رعايتنا، إلى نقص في الفيتامينات وكذلك إلى إعاقة النمو. ولكن يبدو أن جسم المراهق يتجه بالفطرة

---

(١) ارجع إلى كتاب «الهرمونات» تأليف رى P. Rey من نفس المجموعة.

(٢) خاصة فيتامين A الذى يؤثر على النمو العام، وفيتامين D الذى يؤثر على نمو الهيكل العظمى وفيتامين E الذى يؤثر على النشاط الجنسى – المؤلف..

إلى سد هذا النقص بميله إلى الخضروات والفاكهة الطازجة وهى كما نعرف غنية بالفيتامينات[1].

ولعلك ستدهش للقدر البسيط الذى يسهم به الجهاز العصبى في انتفاضة جسم الشاب. والجهاز العصبى المركزى لا يقويه تغيرات هامة بعد سن التاسعة أو العاشرة، وكذلك الحال بالنسبة للجهاز التلقائي[2] ولعلك تعرف أن تأثيره على حركة الأحشاء يعتمد على التوازن بين الجهاز السمبتاوى والجهاز البراسمبتاوى أو المعدى[3]. وفى الطفولة، يزيد أثر الجهاز البراسمبتاوى، أما في المراهقة وكذلك في سن البلوغ، فيزيد أثر الجهاز السمبتاوى ويرى ماى **Emay** أن العلاقات بين الكائن والعالم الخارجى تضطرب عندما ظل انقباض الجهاز السمبتاوى ضعيفًا بعد البلوغ.

خصائص النمو في المراهقة:

ويمكننا الآن أن نذكر خصائص النمو عند المراهقين، فهو أولا واضح «الجنسية» إذ تزيد الاختلافات بين جسم الذكر وجسم الأنثى، بل يكون النمو الخاص بالفتاة أكثر تبكيرًا وقصرًا من نمو الشاب. وثانيًا، يأخذ النمو غالبًا عند البلوغ، شكل يُسمى (٥٠ أزن) على أساسها يمكن تفسير الاضطرابات التى تثيرها لدى الوالدين وأخيرًا، يبدو النمو «كتشكيل» بمعنى الكلمة إذ تتضح الفروق الفردية، أما العناصر الوراثية التى كانت كامنة عند الطفل فتعمد

---

(١) ارجع إلى كتاب «الفيتامينات» من تاليف جالو **S. Gallot** من نفس هذه المجموعة.

(٢)، (٣) يحوى الجهاز العصبى جهازًا عصبيًا مركزيًا، وهو العضو المنظم للعلاقة بالعالم الخارجى، وجهازًا عصبيًا تلقائيًا، وهو العضو المنظم لعمل الأعضاء، وينقسم الجهاز الأخير إلى جهازين متعارضين هما الجهاز السمبتاوى ويزيد من سرعة ضربات القلب ويثير اللعاب ويبطئ من تقلصات الأمعاء ويرخى عضلات الشرج والجهاز البراسمبتاوى الذى على العكس من الأول، يُبطئ من سرعة القلب ويقلل الإفرازات الغددية ويزيد تقلصات المعدة. وكلا الجهازين، السمبتاوى والبراسمبتاوى، على علاقة وثيقة بالغدد الصماء، وتوجد بعض المواد الكيمائية أو الهرمونات لإثارة عمل هذين الجهازين أو إعاقته - ولدراسة أثر كل من هذين الجهازين في الشكل النفسى للفرد، يمكن الرجوع إلى كتاب «علم النفس التطبيقى» لرينيه بينوا «ترجمة محمد زيدان وحلمى عزيز» عن دار الأنجلو المصرية للنشر.

وتحدد معالم مزاج كل فرد. وهكذا يأخذ المراهق شكله، وهذا ما سنجده أيضًا في المجال النفسى.

ولا يعنى هذا التطور الحاسم في الجسم مقاطعة الماضى بأى شكل من الأشكال، ولكن أهمية التغيرات التى تلاحظ ترجع إلى حدوثها في نفس الوقت، ومن مجموعها أو من الارتباط بينها يتم للجسم فيما بين الثامنة عشرة أو العشرين اتخاذ شكل جديد تمامًا.

أمراض المراهقة:

كثيرًا ما يقال إن المراهقة سن حاسمة، إذ تهدد فيها الصحة كل أنواع الأخطار. ودون أن أتهم بالتفاؤل المفرط، يمكننى أن أقرر وجود بعض المبالغة في هذا القول الشائع، لأن غالبية الشباب من الجنسين يمرون في الواقع بهذه الأزمة دون ضرر كبير، وتبلغ نسبة الوفيات في الإنسان حدها الأدنى فيما بين سن التاسعة والثالثة عشرة، ثم يرتفع المنحنى بعد ذلك حقًا، ولكن ليدل على ارتفاع طفيف، ولا يرتفع من جديد بشكل ملحوظ إلا فيما بعد المراهقة، فإذا ما فحصنا الإحصائيات عن قرب، نجد أن نسبة الوفيات التى تكبر في بداية الحياة (فى الأولاد أكثر من الفتيات) تقل بالنسبة للأولاد فيما بين سن السادسة والثامنة عشرة، ثم ينعكس الوضع من جديد. وهكذا يبدو أنَّ الجنس الأنثوى أكثر ضعفًا من الجنس الذكرى أثناء أزمة البلوغ.

ومن بين الأمراض التى تصيب الشباب، يجب أن نذكر الاضطرابات الخطيرة في النمو، وترتبط في أغلب الحالات بسوء تنظيم إفراز الهرمونات. ولننحى جانبًا التأخر الكبير في النمو، ويظهر منذ الطفولة ويتضح في مجموعة من الأمراض العقلية التى تسمى «الضعف العقلى L' oligophrenie» كالبله، وغالبًا ما يموت المصابون بها عند البلوغ. وهناك أيضًا «القزمية Le nanisme» و «الضخامة Le gigantisme» أحدهما عن زيادة في النمو، والآخر عن نقص فيه، ويرتبطان باضطراب الغدد الصماء، كاختلال الغدة تحت المخية مثلا. وأحيانًا تسرع بعض الاضطرابات المماثلة من ظهور الوظيفة التناسلية أو تبطئ فيها، مع

اختفاء الخصائص الجنسية الثانوية واحتفاظ الجسم بأشكاله الطفلية. ويصاحب هذا التأخير الملحوظ في البلوغ إفراط في السمنه ونقص في نمو الأعضاء التناسلية. أما في حالات البلوغ المبكر جدًا، فيكون الأولاد عادة من النمط الهرمونى، أما الفتيات فتكن مفرطات في السمنة.

وقد وجد الطب في الهرمونات علاجًا جديدًا وفعالا للقضاء على أمراض النمو، وذلك باستخدام إفرازات الغدد الصماء للحصول على المواد التى تنقص المريض الشاب، ويؤدى امتصاص الهرمونات التى تناسب الحالة إلى الشفاء في أغلب الأحيان، بل وإلى ظهور الدلائل الطبيعية للنمو الجسمى وكذلك ظهور الخصائص الجنسية الثانوية.

وفيما عدا اضطرابات النمو الجسمى والعقلى، لا يوجد إلا مرض واحد شديد الخطورة ويهدد المراهقين بصفة خاصة، وهذا المرض هو السل، فقد وجد أن بداية البلوغ هى اللحظة التى تلائم ظهور هذه الإصابة بأشكالها الخطيرة، أكثر من أى سن أخرى، ومن هذه الأشكال «السل السريع» مثلا. ولكن ما تعليل ذلك؟ وليس هناك حتى الآن تفسيرات مؤكدة، ولكن الإجهاد، وأسباب الحياة القاسية لها أثرها بلا شك، وكذلك التغيرات التى تطرأ على الجسم في هذه اللحظة، فربما كانت تهيئ للسل تربة خصبة.

ولن أفيض في الجانب المرضى للنمو، فهذا هو مجال الطبيب، وتدور فيه حاليًا أبحاث لها شأنها، ولكن خيل إلى، عند الحديث عن انتفاضة الجسم، أنه من الضرورى أن أشير إليه لاستكمال الصورة. وعلاوة على ذلك، كان الشاذ دائمًا هو سبيلنا إلى فهم الشخص السوى فهمًا جيدًا.

انتفاضة الجسم والتربية:

ولعلك لا تتوقع منى أن ألقى درسًا في التربية، ولكنى وعدت بتحديد كل المشكلات التى تعترض تربية الشباب، ولها فيما يختص بالنمو العضوى جانبان: فأى الوسائل يصلح لقيام نمو جسمى كامل ومتناسق؟ وأى احتياطات نفسية وخلقية يجب اتخاذها إزاء هذه الانتفاضة؟

ويقول أحد الكتاب: كل ما في الشباب حلم، عدا الجوع. ولا تصدق هذه العبارة إلا فيما يتعلق بأهمية شهية الشباب التي لا تقع، فقد وجد أن وجبة الغذاء للولد فيما بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة يجب أن تكون بنسبة $\frac{8}{10}$ من وجبة الرجل البالغ، أما وجبة الفتاة في نفس السن فتكون بنسبة $\frac{7}{10}$ ويعنى هذا أن المراهق يجب أن يحصل على نفس وجبة المرأة، وتقدر هذه بحوالى $\frac{7}{10}$ من وجبة الرجل. ويعوق نقص التغذية النمو: وتؤيد هذا الرأى الأقاليم الفرنسية التى احتلت أثناد الحرب العالمية الأولى، كما أنّ المركز الحالى لفرنسا يثير في هذا الصدد مشكلات خطيرة. ويجب أنْ نعمل على تزويد شبابنا بالغذاء الكافى مع مراعاة الجهود التى يبذلونها أثناء تدريباتهم الرياضية أو عند القيام بعمل عضلى مستمر.

ولنفرد كذلك مكانًا كبيرًا للتربية الرياضية، ولا شك أن فرنسا قد رسخت أقدامها في هذا السبيل، فدخلت الحياة في الهواء الطلق ضمن ساعات التعليم. ويجب أن نهتم بالتمرينات السويدية والألعاب حتى سن السادسة عشرة، أما بعد أزمة البلوغ، فلنهتم بالرياضة وبأجهزة التربية البدنية، وتقتصر على الأولاد فقط. وكثيرًا ما نوقشت هذه المسألة لمعرفة إذا ما كانت الأجهزة تعوق أم لا زيادة طول الهيكل العظمى، ولم نصل مع ذلك لجواب شاف، ولكن ما أن تقتصر على ما بعد سن السادسة عشرة حتى يمكن استبعاد الخطر المحتمل من استعمالها، وللرياضة الآن المكانة التى تليق بها، ولكن يجب أن نختار منها ما يناسب، فمن بين رياضات القوة، يبدو أن العدو هو أنسبها للمراهقة، وكذلك الرياضة الجماعية التى لا تستلزم جهدًا متواصلا كما هو الحال في رياضات القوة والتى تتيح فرصة للراحة لكل فرد من أفراد الجماعة. وتلائم التمرينات الرياضية المرأة أقل من الرجل، إذ إن نتائجها فيها أقل من نتائج الرجال كما أن هذه النتائج تتناقص بسرعة. ومع ذلك، تبدو بعض الرياضات الجماعية مثل التنفس، صالحة للجميع، بينما لا تناسب رياضات أخرى مثل كرة القدم وكرة اليد الشباب، أما كرة السلة، وهى أقل خشونة وأكثر مرونة، فهى تتفق أكثر وإمكانيات الشباب.

ويخشى من التربية البدنية والعمل المهنى أن يؤديا إلى إجهاد خطير إذا لم تحسن رقابتهما. ولذلك أقيم منذ قرن، في الصناعة، تشريع يتلافى الأخطار التى يتعرض لها الأيدى العاملة من الأطفال والشباب. وكذلك يلزم للتربية البدنية إشراف طبى مستمر، فإذا ما أهمل، فإنَّ المراهقين يبذلون بوحى من كرامتهم وتحت تأثير حبهم للمنافسة، جهدًا يفوق طاقتهم، وإلا تعرض هيكلهم العظمى للتشويه، كما يؤدى الإجهاد المستمر للقلب إلى أمراض القلب.

ولا تقل الاحتياطات النفسية أهمية، فإنَّ النمو، خاصة عند البلوغ، يداهم الشباب. ويزيد من قلقهم بقدر ما يصاحبه عادة من دوار وإحساس بالتعب وصداع. وقد يؤدى إلى إثارة بعض الأوهام وكذلك اضطرابات عقلية أكثر خطورة. ولذلك يجب أن نخطر المراهقين بكل التغيرات التى ستحدث لهم حتى لا يبالغوا في تقديرهم لها، وسنرى أنَّ بعضهم سيعتقدون أنهم من الشواذ، ولذا كان من الواجب أن نهدأ من روع بالغى الحساسية منهم، الذين يؤلفون قصصًا حقيقية عما يجرى لصحتهم.

والتحذيرات والنصائح الأولية ضرورية وبخاصة للفتاة التى يجب أن تعرف، وهى في حوالى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها أنَّ الطمث سيأتى يوما، وقد يسبقه بعض التوعك وذلك حتى لا ترتاع عند ظهور الدم الأول. وهذا هو دور الأم، وعليها ألا تتخلى عنه إذا كان لها طفلة توشك على المراهقة، فالأم التى لا تحذر ابنتها في الوقت المناسب عن عدم مبالاة أو مبالغة منها في الحرص، تعتبر آثمة، وعليها أن تنتهز الفرصة للتحدث عن الأمومة، أما فيما بعد فإن مادة رعاية الطفل تزود كل فتاة بمعلومات كاملة. وأخيرًا، تسمح المحادثة التقليدية التى تجرى قبيل الزواج، للأم أن تمد ابنتها بالمعلومات اللازمة للحياة الزوجية.

أما الأب، فعليه واجب ممثال نحو ابنه، ففى حوالى سن الثالثة عشرة تكفى الابن بضعة كلمات حتى لا يتسبب تغيير صوته في بعض القلق له، أو حتى لا يعتقد أنَّه قد وصم بظاهرة الانتصاب أو الاستمناء الليلى. وكذلك على الأب، أثناء

مراهقة ولده ألا يتردد، إذا ما حانت الفرصة (وكثيرًا ما تحين إذا ما أراد هو ذلك) في توجيهه وتحذيره من العادات الخطيرة.

وقد طال اعتبار المسائل الجنسية من المحرمات، وإحاطتها بالأسرار ومع ذلك تضطرنا أهميتها للحياة إلى أن نأخذها في اعتبارنا في التربية. فعلى الوالدين، أو على المربى إذا ما ترك له الوالدان هذه السلطة، دور حساس وهام، ومع ذلك فعادة ما يهمل هذا الدور. فإذا ما تم أداؤه بمهارة وفي بساطة مع الحفاظ على ثقة الشباب، كان ذلك سببًا في قيام الاتزان العقلى الذى قد تعرضه انتفاضة الجسم للانحراف بشده ويمكن الاعتراض على ما يسمى، بعبارة قد تكون خاطئة، «بالتربية الجنسية» ومع ذلك لا يمكننا إنكار أهميتها. فإذا ما ترددت في مواجهة هذا الموضوع مع أحد أولادك، فعليك أن تتساءل إذا ما كنت تفضل أن يحدثه عند زميل له سيئ السلوك، أو أن يُصَادفه عرضًا في إحدى قراءاته المحرمة. وإنى واثق الآن أنك ستدع عنك التردد.

والآن وأنا أنهى هذا الموضوع، يعترينى بعض الخوف. فهل شاهدت جيدًا انتفاضة أجسام الشباب، بقوتها وجمالها رغم كل التفاصيل العددية وكل أنواع الشفل التى تتعرض لها هذه الانتفاضة عند المرضى منهم؟ فإذا كانت الصورة قد تشوهت بالتعقيد، وهذا خطأ منى فعليك أن تتذكر المراهقين الذين تصادفهم في الطريق، وهم أشبه بالسيقان الفارعة اللدنة التى تحس أنها تمتلئ بالعصارة، ويحقق لها الشباب الصفاء والنضرة الجميلة. ولتقرأ في «الأوديسا» هذه الكلمات الأولى التى نطق بها أوليس إلى نوسيكا: «عندما أراك، أحسب أنى أرى نخلة كانت بالقرب من معبد أبولون في دبلوس وتصل الأرض بالسماء في انتصاب وقوة».

٢- انتفاضة القلب

ولنترك المجال العضوى لندخل في المجال النفسى. ولكن ألم نطرقه من قبل؟ إذ إن وجوهنا تفصح في الواقع عن مشاعرنا وميولنا، بل ولكل حركة تبدر عن عضلاتنا، ولكل وضع مألوف لنا معنى نفسى يجتهد الفنان في الاهتمام به،

ويحاول عـالم النفس أيضًا ألاَّ يفـوته، وبعبـارة أخـرى، يكون الجـسم بطريقـتـه الخاصـة «تعبيرًا» عن الحياة النفسية، ولا تبتعد المراهقة عن هذه الحقيقة. ولكن رغم الارتباط الوثيق بين النشاط النفسى والنشاط العضوى، فإنهما لا يمتزجان، ولذلك سيجعلنا الطريق الثانى الذى سنسلكه على صلة بمجال الوظائف العقلية التى تتمثل في أكثر العلاقات بالجسم ظهورًا، ونعنى به الوجدان.

ويرى المفهـوم الشائع أنَّ الوجدان يؤدى فى المراهقـة بالحب، ولكنا نرى في الواقع شيئًا أعقد من هذا بكثير، فإنَّ قلب الشاب. لم يعد هو نفس قلب الطفل مـضـافًـا إليـه الحب. ولكن ترتبط نشـأة الحب بتنظيم جـديد وعـمـيق للدوافع والعمليات العـاطفية من خلال نمو يأخذ - كما حدث في الجسم - شكل انتفاضة حقيقية.

دعامات الطفولة: وتتوفر في الطفولة دعامات قوية توجه النمو اللاحق لها، وهذه الدعـامـات هى المزاج، وهو عـامل فطرى ينظم منذ سنوات الحيـاة الأولى، مجموعة الانفعالات الأسـاسية: ويبدو التناقض واضحًا في هذا الشأن بين ردود العقل العـاطفـيـة عند الطفل السـقيم الجبـان، وردود العـقل عند الطفل القـوى المشـاكس. وقد يحـجب الاضطراب البلوغى لبعض الوقت تأثير المزاج الذى يظل مع ذلك قـائمًا: وهكذا لا نستطيع أن نتعرف تمامًا على المراهقـة إلا إذا كنا على إلمام بماضـيـه. وللمتـاع العـاطفى في الطفولة دعـامـة أخرى، وقد تبدو لنا قليلة الاختـلاف، ولكنهـا مع ذلك ليست قليلة الأهمـيـة، وتضم، إلى جانب السعى وراء اللذة التى يقوم عليها الحب، مـجموعة العواطف التى تنشأ فى الوسط العـائلى والوسط المدرسى، فإن الاندفـاعـات العـاطفية في الطفولة المبكرة، أى فيمـا قبل سن الخـامسـة أو السـادسـة، وكـذلك التجـارب الملائمة وغيـر الملائمـة التى تؤدى إليها، تترك في اللاشعور «عقدًا»، وهى طاقات، وفى نفس الوقت فقط ضعف في الجهاز النفسى، تثقل على سلوك الفرد رغما عنه. وهذا ما يلاحظ عندما ندرس أصول مـرض عصـابى يظهـر في المراهـقـة أو في سن النضج. وأخيـرًا، تقع خـلال الطفولة الدلائل الأولى للحياة الجنسية.

ونكون مبالغين إذا اتبعنا كل تفسيرات فرويد، فإن تصفيتها واجبة، وهذا ما يحدث فعلا منذ عدة سنوات، ولكن دون أن نخلط بين ما هو جنسى Sexuel وما هو تناسلى genital يبدو مستحيلا علينا أن ننكر أن للطفل نصيبا من الحياة الجنسية أثناء طفولته الثانية، أى من سن الثالثة إلى سن السادسة، ولا معنى لهذا التبكير عند الإنسان، فلعلك تعرف أن للقرود مثلا سلوكا سابقا لظهور الجنس قبل سن البلوغ بعدة سنوات، ولا يقتصر مثل هذا السلوك على القرود وحدها. ثم يهدأ الحماس الجنسى فيما بين سن السادسة والثانية عشرة، وهذه هى مرحلة «الكمون» التى يتحدث عنها علماء التحليل النفسى، وفيها تنمو العواطف بدون أى اتصال جسمى بين الصبية والفتيات أو بين الأطفال من نفس الجنس. وهكذا «يستيقظ» الدفع الجنسى في المراهقة ولا نقول «ينشأ»، فإلى أن يأتى البلوغ، يرافق هذا الدفع النمو فقط ويسير عليه، ولكنه منذ هذه المرحلة تتحدد معالمه وتثبت.

الغريزة الجنسية: وأول تجديد يتم في وجدان المراهقين هو ظهور الغريزة الجنسية[1] التى تدخل طورها الفعال منذ قيام الوظيفة التناسلية، وهى أحد المظاهر المثيرة إذ ربما تكون الفرصة الوحيدة التى يمكننا أن نلاحظ فيها تفتح غريزة جوهرية عند الإنسان، هذا إذا ما أبعدنا غريزة الأمومة التى لا تفقد صلتها بها. وتظهر هذه الوظيفة في لحظة تكون فيها الحياة النفسية على قدر كبير من التطور بعد أحدثت فيها التربية أثرها البالغ. ولا شك أن لهذا السبب يعتبر تفتح الغريزة الجنسية لحظة عسرة، وتتعرض أكثر من غيرها لكثير من الأزمات، ولهذا السبب أيضًا، تقوم أمام دراستها عقبات يضاعفها الكبت الذى تفرضه الحياة الاجتماعية، وكذلك كتمان الشهوة. فلا تدهش إذن إذا ما لاحظت عدم كفاية لدراسات التى خصصت لها.

وتظهر النزعة الجنسية عند البلوغ ولها كل الخصائص الرئيسية للغريزة،

(١) وسأستعمل «لفظة غريزة instinct» ولو أن مدلولها أخذ يفقد وضوحه منذ عدة سنوات، وذلك للتأكيد على الجانب النوعى والوراثى في هذه النزعة - المؤلف.

أى كنزعة أولية لا شعورية موجهة، فيحس المراهق بحاجات جديدة لا تزال غامضة عليه، ورغبات قوية غير محددة تدفع للخروج من إطاره وتمهد لميله للجنس الآخر. ويصيب التذبذب سلوكه، وهذا ما يدهش له الأشخاص المحيطون به بينما لا يدهش هو به وتتتابه دفعات مفاجئة من الانعطاف، ونوبات من الانطواء لا يمكن تفسيرها وحركات غير لائقة تملأه أحيانًا بالخجل. وهكذا يكون تأثير الغريزة الجنسية فى أول أمره خفيًا وتوجيهها مترددًا ولا يتفق مع الأساليب الوجدانية السابقة لها، وتسبب القلق للشخص الخجول، وتصيبه بما يشبه الحيرة والذهول وكأن قوة تعمل بداخله وتوجهه إلى هدف لم يتضح له بعد جيدًا.

ويصاحب ظهور هذه الغريزة صحوة حقيقية في الحس الذى يضاعفه الخيال بكثير من الزخارف والنزوات. وسبق للطفولة الأولى أن عرفت اللذة الجامحة عن طريق الحواس، خاصة باللمس والذوق. أما عند البلوغ، فتنمو مجموعة كبيرة من اللذات التى ترتبط إلى حد ما بالحياة الجنسية، فيميل الفتية والفتيات إلى العطور القوية التى تدور بها الرأس، وتحتل مكانًا بارزًا في زينتهم، ويصبح الفرد حساسًا إزاء رائحة الشعر والجلد التى تسبب له نشوة جميلة، كما يبعث السرور في نفسه اتساق الألوان وجمال الأشكال، في الجسد العارى خاصة، وطراوة اللحن أو الإيقاع الجديد. وتوحى إليه باللذة القراءات والأفلام والأسرار التى تصل إلى أسماعه همسا. وقد ثبت من تجارب أجريت أن هذا يرجع لاهتمام عاطفى ببعض الإحساسات أكثر من تقدم حقيقى للحس. وقد ينمو عند بعض الأفراد تيار عكسى، فيقاومون هذه الإثارة اللا إرادية لكيانهم كله، وذلك حبًا منهم في الطهارة. وغالبًا ما يوجد التياران متجاورين، فيمر نفس المراهق من أكثر الصور طهرًا إلى أكثرها إثارة. وهكذا تثير الغريزة الجنسية في الشبان بوجه خاص، وعند الحدود النامية لشعورهم، ما يشبه «أمواجًا متلاطمة» من العشق.

وتمارس هذه الغريزة أثرًا فعالا وتصبح مصدرًا للانفعالات التى ترتبط مباشرة برغبات ناشئة في كيان المراهق. ولكن تأثيرها غير المباشر يكون كبيرًا أيضًا، فتغير بوجودها الحياة العاطفية في مجموعها تدريجيًا حتى إنها بعد أن كانت لا تشغل في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة إلا جزءًا محدودًا من

الإحساس، تنتشر بعد ذلك بثلاث أو أربع سنوات: وهكذا يتجه الوجدان كله، ومن قبله الحسم، إلى الجنس.

الانفعال المتزايد: والتجديد الثانى هو رجوح كفة العاطفة، ويرجع لثراء الحياة الانفعالية والخيال.

ومن المعروف أن الشباب من الجنسين يتأثرون بسهولة أكثر من الأطفال الذين لا يتعدون الثانية عشرة، إذ تكفيهم أحيانًا كلمة أو تلميح أو حركة لتقوم عاصفة هوجاء. كما تحمر وجوههم للاشىء خاصة إذا كان هذا اللاشىء يشير إلى المجال الجنسى، وقد يؤدى الخوف من الانفعال إلى مرض «الخوف من الاحمرار **L'ereutophobie**» الذى تعرفه العيادات النفسية. وتمر بالفتيات عند البلوغ نوبات من الضحك الهستيرى والبكاء بصوت عال، إذ إن الاضطراب الانفعالى لا يؤثر فقط في الأفعال والحركات، ولكنه يشل النشاط العقلى أيضًا، وهذا ما يلاحظ عند الأفراد الذين يخشون الامتحانات وهكذا يتميز النصف الأول من المراهقة بزيادة في الانفعال يضاعف من حدتها عدم استقرار مزاجى كبير، ويظهر خاصة عند الفتيات.

ويزيد عدد الانفعالات ويزداد عمقها أيضًا، ويرجع هذا كما رأينا، إلى قيام الدفع الجنسى من جهة، ومن جهة أخرى كنتيجة للاتصالات الاجتماعية الكثيرة، المتنوعة. ويتغير تعبيرها أيضًا، ويتعقد، وهكذا يتطور غضب الطفل إلى حد الاستنكار، ويستبدل الإشفاق بالرحمة. وقد يحدث أن تكتسب بعض الحالات العاطفية نغمة مرحة وحزينة فى نفس الوقت. والاكتئاب الذى قلما يعرفه الطفل، وهو أحد الانفعالات المزدوجة التى يتميز بها من الخامسة عشرة، ويرجع إلى حزن لا سبب له، وتراخ وانتظار يشوبه القلق، كل هذه الأشياء التى لا تخلو من السحر لدى المراهق والتى تبدو ذات علاقة بانخفاض توتره النفسى.

ويخضع التغير في الحياة الانفعالية لتنظيم هرمونى جديد، وكذلك للجهاز العصبى التلقائى. وبفضل هذين الجهازين، يبدو الجسم وكأنه قد زاد تأثرًا بانفعالات جديدة لا تظهر إذا ما توقفا عن أداء دورهما.

ولا تعتقد أن هذا التزايد في الانفعال يشعر الشباب دائمًا بالتوجس والخوف. ولا شك أنهم يظهرون بسببه أقل اتزانًا من الأطفال الذين يبدون لنا غير مبالين، أمام أكثر المشاهد إيلامًا. كما أنه أحد مصادر «الخجل» الشائع عند المراهقين حتى إن لاكروا J. Lacroix يرى فيه سلوكا مميزًا لإحدى فترات نموهم. ولكن لا تنس أن هذا الفيض من الانفعالات سرعان ما يجد ما يقابله من «ضبط النفس» المتزايد. ولما كان المراهق لا يقوى على تحمل الانفعالات القوية المتوعة، فإنه يصير أكثر قدرة على الكبت وكبح جماح عاطفته - وهذا ما يعنى أن إرادته تقوى. ويميل بعض الشباب في هذا السن إلى اللامبالاه. ولا تجد هذه اللامبالاه ما يضارعها إلا عند الفتيات اللاتى يحتفظن بورودهن في مأمن من أعين الغرباء. ومع ذلك يبدو أن الدفع الانفعالى لا يقوى عند جميع الأفراد، وأنه لا يغمر الشعور كله بصفة مستمرة إلا في بعض الحالات المرضية.

خيال الشباب: ويدهش لزيادة الخيال أقل المراقبين دقة. ففى الطفولة الثالثة، يكون الذكاء في جوهره عمليًا، فيقتصر الفضول على مجرد الأشياء والمعلومات. أما عند البلوغ، فيصير ذاتيًا، وكذلك قادرا على البناء وإقامة العلاقات القوية، ويعتمد على ذكريات عديدة وقراءات يشيد بها عالمًا من المشروعات والتوقعات. وبينما كان الطفل يعيش على حاضر، ينظم المراهق فكرة التوقيت النفسى في اتجاهى الماضى والمستقبل. ويقتصر النشاط الارتقابى على مجرد الاهتمام بالحاضر، ومن هنا يكون تكيفه بالواقع ضعيفًا. وعلاوة على ذلك، تزيد قدرته على التصور العقلى لشخص أو لمشهد ما حتى إنه يكاد يخلط بين الحقيقة والخيال. وتستطيع الفتيات خاصة أن تعشن على «أحلام اليقظة» في غمار الحياة اليومية. ويلاحظ كذلك أشكال مختلفة من «جنون الكذب Le mytnonanie» في صورة خيال كاذب. وينتاب الحقيقة في المراهقة تشويها كبيرًا، إذ إنها تفسر من خلال أفواج من الصور تجعل شهادة الشباب في حاجة دائمًا للإثبات، ويعمل خيال الشباب على الربط عن طريق التقليد بين عناصر حقيقية ليضع منها جديدًا، وذلك بطريقة آلية وصفها تارد Tarde الذى كان يرى في هذا الإبداع «تفاعلا بين أنواع من التقليد» ويبدو أيضًا أن أبسط

الهزات العاطفية تتسبب تلقائيًا فى إخراج مجموعات من الصور. وأخيرًا، يقوم نشاط تصورى يكون تحت تصرف الوهم.

ويحب الشباب المجهول والتجديد اللذين يخضعان لنزواتهم أكثر من معطيات الخبرة. ويظهر حبهم لقصص المغامرات فيما بين سن الثانية عشرة والخامسة عشرة، وكذلك حبهم للرحلات التى يجدون فيها نوعًا من الاكتشاف. ثم تبدو لهم المغامرة كعملية خارجية، ولذلك يبحث خيالهم عن أساليب مختفية في الشعر الغنائى أو الرمزى وفى القصص العاطفى. وهذه هى أفضل اللحظات للخيال وقصور الرمال والأوهام التى تعتز بها الفتيات خاصة، وكلها تجعل التكيف بالحياة عسيرًا ويخشى منها على تزييف الحكم في بعض الرءوس الضعيفة.

ولكن هل هذا هو عالم العجائب الذى يظهر في سن الخامسة؟ وهل يجب اعتبار هذا التفكير الخيالى أقل مرتبة من التفكير العملى في الطفولة الثالثة؟ لا. بل ويجب التفرقة بعناية بين النشاط الطبيعى في خيال المراهق وأشكال النكوص عند المصابين بالعصاب. وهذا النشاط غنى بالإمكانيات الجديدة في مجال الاختراع والتعبير، ويستخدم كوسيلة لبلوغ التقدم الفكرى. فإذا سلمنا مع جيوم **P. Guillaume** أنَّ الخيال، أكثر من عملية الذكاء نفسها. مميز للإنسان، لكان علينا أيضًا أن نرى في المراهقة مرحلة أساسية من مراحل النمو.

ويمكننا أن نقتنع بذلك إذا ما لاحظنا ارتفاعًا ملحوظا في مجال الخيال الخلاق، وبخاصة في مجال الفن، إذ يتذوق المراهق الصور الشعرية، ولما كان أكثر إحساسا بجمال الأعمال الفنية، فإنه يسعى إلى التخلص من شحنته من الصور في محاولات أدبية وفنية وموسيقية يُظْهِر فيها، إلى جانب بعض التقليد المتهور، ألوان من التوفيق الشخصى. وهكذا يمكننا القول إن الخيال يسمح للشباب باكتشاف نفسه واكتشاف الآخرين والحدس بالعالم والحياة.

وقد يكون خيالهم في الواقع على شيء من السذاجة وعدم الثبوت إذ تتجمع صورهم كمخططات دائمة التغير، ولكنها فورة من الصور تحيط ببعض الدوافع مثل الحب والحياة التى يهدف إليها، إلخ... وهكذا كان الاعتقاد بثراء هذا الخيال،

فهو يتزايد بلا شك، خاصة لدى الفتيات اللاتى لا ينتهين من نسج القصص حول عدد صغير من الموضوعات. ومع ذلك، فهو في الحقيقة لا يكون أكثر تألقًا أو أقل شططًا. وأنسب الفترات لهذا الخيال هى الفترة التى تمتد ما بين سن السابعة عشرة والعشرين.

وأشكال خيال المراهق متعددة، وتتراوح بين الحلم والرمزية الصوفية. وأبرز هذه الأشكال هو بلا شك «أحلام اليقظة» التى تصير أحد أساليب التفكير، ويفضل هذا الأسلوب عند البلوغ. ويظهر فيه أثر انفعال بسيط يؤدى إلى خلق الصور الأولى، ثم يجنح بها الخيال بعيدًا عن التفكير الذى يتدخل بعد ذلك بالربط بين النزعات والذكريات والأفكار، وكأنه بذلك قد انزلق على سفح منحدر يؤدى به إلى عالم نصف خيالى ولكنه يتفق دائمًا تماما مع الحالة العاطفية الراهنة.

سن العاطفة: وتوضح لنا انتفاضة الوجدان وكذلك انتفاضة الخيال لماذا تعتبر المراهقة أنسب سن للعاطفة، ولما كان الانفعال قريبًا جدًا من كيان الفرد، كان في العادة مصدرًا للاضطراب ولكنه سرعان ما يختفى، وما أن يمتد بالصور العقلية إلى المستوى الذهنى من الشعور، حتى تهيئ له هذه الصور بعض الاستقرار عن طريق التذكر. وما العاطفة إلا نتيجة الجمع بين العناصر الانفعالية والعناصر الخيالية، وتظهر عندئذ كمنظم لحياتنا الوجدانية، وتختلف عن الانفعال إذ تؤدى حركة التعاطف مع شخص ما مثلا إلى عدة انفعالات ترتبط فيما بينها بنسيج من الذكريات والمشروعات والأحكام لتكون قصة، هى العاطفة الدائمة في صورة صداقة.

والعواطف هي الثروة النفسية الحقيقية عند المراهقين، وتبدو عند الطفل وقد تكونت من انفعالات شديدة وعنصر ضعيف محدد من التصور. أما عند المراهقين، فتمتاز بنصيب كبير من التصور، وبفضله يمكن لكل اهتزاز انفعالى أن يخلق عاطفة لها قدرها.

ويتم خلال المراهقة إعادة تنظيم للعالم العاطفى، فتكتسب العواطف القائمة فيه مثل حب الذات وعاطفة البنوة، خصائصا جديدة، فيزدهر التعاطف في أشكال متعددة من المودة، كما تظهر عواطف أخرى مثل الحب والكره والاحتقار من الإعجاب والحنين، بالإضافة إلى «عواطف سامية» مثل حب الجمال، وعواطف أخلاقية وأخرى دينية. ولن نستطيع دراستها كلها، ولكنا سنصادف معظمها في دراستنا هذه. وستكون الصداقة والحب أكثر العواطف تميزًا، ويمكنهما وحدهما أن يعطيانا فكرة كافية عن انتفاضة القلب.

خصائص العاطفة في المراهقة: ويسمح لنا التحليل الإجمالى الذى حاولنا القيام به، أن نحدد الخصائص العامة لوجدان المراهق مع مقارنته بوجدان الطفل.

ووجدان المراهق أكثر عمقًا، فالشاب أقل تلقائية وتعبيرًا عن نفسه من الطفل. ويقوم بين الهزة الانفعالية ورد فعل الأنا، نشاط عقلى تزداد تعقيدًا كلما قويت عوامل الكف وبينما كانت الحياة العاطفية عند الطفل تدور في سطحية وبالإشارة المباشرة، تزداد عمقًا وتكتما لدى الشباب الذين يمكنهم إخفاؤها بمهارة أو التعبير عنها بقوة. ويبدو لى هذا الخلاف بين المستوى الداخلى والمستوى الخارجى، ونجده أيضًا فى مجالات أخرى، كأحد الخصائص الأساسية في الجهاز النفسى عند البلوغ.

ويصير المراهق كذلك أكثر إلماما بإحساساته، ومن قبل كان قلما يحتفظ بالرغبات والانفعالات والعواطف على ضوء من التفكير، ولكنه، منذ هذه اللحظة، ينظم تحليله الداخلى ويزيد تقدما في مجال العاطفة التى تمده بالعناصر الأولية اللازمة له.

ويتخذ الإحساس لدى المراهق صفة «الشغف Passion»، وقد أعلن رُوسُّو في كتابه «إميل» عن قدوم «سن الشغف»، ويكرر شاتوبريان نفس الشىء. ولكن ماذا يجب أن نفهمه من كلمة «شغف»؟ إنها تعنى أولا عاطفة قوية متزايدة يمكنها أن تغزو مجال الشعور كله وأن تعطل كل الطاقات وأن توجه السلوك كله، وهذا ما يرى في أنواع الحب والكره عند الشباب. ولكن هذا لا يكفى، إذ يمكننا أن نتحدث

أيضا عند شغف الأطفال باللعب مثلا، وهكذا يبدو أنه يلزم للشعب أن يكون الفرد مالكا لكل إمكانياته من اللذة والألم، ويكاد يظن أن نمو الغريزة الجنسية هو الذى يسمح للشباب بمد عواطفهم بكل هذه القوة وهذا العنف اللذين يميزان وجدانهم عن وجدان الطفل: وقد رأينا كذلك أن إحساسهم يزيد امتدادًا تبعا لاتساع الأفق الاجتماعى الذى كان من قبل محددًا في نطاق الأسرة والمدرسة. وأخيرًا، نجد أن هذا الإحساس يختلف شيئًا فشيئًا تبعًا للجنس كما أوضحنا من قبل عدة مرات.

ولعلك قد لاحظت أنه من الصعب، بل من الزيف، أن نحاول تحديد مركز الحياة العاطفية عند الشباب من أنواع النشاط الأخرى لديهم. فقد قادنا الحديث عن انتفاضة القلب إلى معرفة نصيب الخيال منها، ولكى تتضح لنا الرؤيا يجب علينا أن نتجنب كل محاولة قديمة للفصل بين هذه الأنواع من النشاط، فإن الإحساس عند المراهق يسخر، أكثر من كل الأنواع الأخرى، من الحواجز الثابتة، فهو يحيا بالخيال، ويغمر بدوره الخلق والذكاء والإرادة، كما أنه مركز كل تطور يتم، وهذا هو آخر خصائصه وأهمها، وهذا أيضًا هو السبب الجوهرى الجديد الذى يجعلنا نبدأ به رحلتنا النفسية للاستطلاع.

الصداقة عند الشباب: ولكى يمكننى الحديث عن جدارة عن صداقات الشباب وعن الحب الوليد عندهم، يجب أن أكون شاعرًا، وشاعرًا مبرزًا، ولكنى لست كذلك، ولذلك فبدلا من إجهاد نفسى بما لا طاقة لى به، يحسن بى أن أجتهد في إظهار أى الأشكال تأخذ هاتان العاطفتان الأساسيتان في المراهقة، وأى المشكلات تتسببان فيها.

ولنبدأ بالصداقة ما دامت هى التى تسبق عادة الحب.

وغالبًا ما تكون العلاقات التى يقيمها الطفل خارج نطاق الأسرة غريزة عرضية أساسها اللعب. وقد تنشأ هذه العلاقات بحكم الجيرة أو العادة، ولكنها قلما تستمر بعد الافتراق، وتسهم في إشباع الحاجة إلى الحياة الاجتماعية، وتظهر في الطفولة الثالثة، وتؤدى عند الأولاد إلى تكوين الجماعة، فيأخذ التعاطف بين الأطفال من نفس السن شكل زمالة، أما بالنسبة لشخص أكبر سنًا،

فيكون أشبه بعاطفة البنوة. أما الصداقات في المراهقة فتقوم على العكس من ذلك، على الاختيار والريبة والملكية المطلقة، وتتعرض لكل هزات الحب، ومنها الغيرة. وهذه الصداقة أقل نفعية من صداقات البالغين ولا تسمح بالحساب إلا نادرًا. ويمكننا أن نرى فيها دفعة لا تقاوم من التعاطف تظهر للتعبير عن مشاركة عاطفية وعطف فعال.

وهناك على الأقل ثلاثة أنواع من الصداقة عند الشباب، وتقوم غالبًا بين الشباب من نفس الجنس والسن، في المدرسة مثلا. أما الاختيار، ولا يجد تبريرًا له إلا فيما بعد، فينشأ عن اندفاع لا شعورى لاحق لظروف عرض: كإفشاء سر فلت من زميل وأتاح لك أن تلمح فيه الروح الشقيقة التى تبحث عنها، أو خدمة قدمها لك في لحظة عسرة. وهكذا تكون الثقة بالصديق، والإعجاب به، والرغبة في امتلاكه، والسعى إلى إظهار العاطفة بالهدايا، والسعادة في بذل التضحية وغالبًا ما يضاف لذلك رغبة حقيقية في التزاوج الروحى والتقمص. ويحاول الصديقان اتخاذ نفس الميول ونفس الآراء، ويظهر التقليد حتى في طريقة قص الشعر أو الخط. وتعبر الرسالات المتبادلة عن حدة هذه الصداقة بعبارات ملتهبة. ولكن قلما يكون هذا الشعور بنفس العمق عند الصديقين، إذ إن أحدهما يحب، والآخر يستسلم لهذا الحب. ورغم ما بهذه الصداقة من إلحاح ساذج، فإنها لا تتردى في الانحراف، وذلك لبراءتها وتعطشها للإخلاص المطلق، ولرقتها البالغة في أغلب الأحيان وقد يقلق الوالدان والمربون لهذه العلاقات القوية ويخشون أن تنقلب إلى انحراف جنسى، ولكن هذه حالة نادرة لأن هذه الصداقات تنشأ عن طباع رقيقة، مثالية يروعها بمجرد التفكير في الإثم، و قد يؤدى الشك من الشخص البالغ إلى تدنيس نقاء هذه العاطفة.

وربما تكون الصداقة التى تقوم بين مراهق وطفل يصغره نوعًا، أكثر تعرضًا للخطر بسبب فارق السن، ولكنها قد تكون أيضًا ذات أثر حسن على أصغرهما، فهى توفر له الحماية والتوجيه في عمله، وكذلك على أكبرهما الذى يرى نفسه محملا بمسئولية أخلاقية، وهذا ما يعطيه فرصة لتأكيد ذاته. ولعلك تعلم

بالفائدة التى أمكن استخلاصها من هذا الشكل من الصداقة الشابة في المدارس الإنجليزية ومدارس الجزويت.

وأخيرًا قد نلاحظ قيام عاطفة شديدة بين مراهق وشخص بالغ تعتبر شخصيته لأعين المراهق مثالا براقا. ويوجد مثل هذا التعلق خاصة نحو المدرس، في كل البلاد، وغالبًا بين الفتيات، وتمتلئ نفوس تلاميذ المدارس الداخلية بمثل هذه القصص الخفية التى تكشف عنها مذكراتهم، والتى يحرج لها أحيانًا المدرسون. وفي هذه الحالة، ينسب إلى الصديق، وأكثر منه الصديقة، كل أنواع الكمال. ولكن هؤلاء المدرسين هم أكثر الناس فهمًا للشباب وأسراره وآماله، ولذا يكونون في أعين هؤلاء المتعبدين لهم أشبه بأنبياء يكشفون لهم عن قيم الحياة.

وتقوم صداقات المراهقة بدور كبير في تكوين الشخصية بفضل الخبرات التى تثيرها، كما أنها تعد الطريق لصداقات البالغين، وهذه أكثر تعقلا، أساسها التقدير والثقة المتبادلة، ولكنها تعتمد بل وتهتدى بذكريات عن الشباب المتحمس. ويرى أيضًا في هذه الصداقات أول تعبير عن إنكار الذات الحقيقى، فهى ترغم الفرد على الخروج من نطاق ذاته، وتعتبر كذلك مدرسة يتعلم فيها الإخلاص. ولكن لنقى أنفسنا من الشطط، فقد تتحول إلى نوع من الوحدة بين اثنين قد تتعارض مع الحياة الاجتماعية الصريحة. وعلاوة على ذلك، فإن المراهق الذى يتعلق بشخص آخر، عادة ما يسقط عليه صورة مثالية لذاته، فهو يراه في الصورة التى يؤديها لنفسه، أو كبديل لنفسه أكثر منه «شخص آخر». ولكن يسقط هذا الوهم فيما بعد، فتموت الصداقة إذا كان الفارق كبيرًا بين الصديق الذى تخيله المراهق والصديق الحقيقى. وحتى في هذه الحالة، تظل ذكرى هذه الصداقة غالية علينا إذ إنها، في نظرنا نحن البالغين، تذكرنا بكل ما كنا نتمنى وجوده عند الصديق، أى المثل الأعلى الذى كنا نحمله في أعماقنا.

الصداقة والحب: ولكن ما طبيعة هذه العاطفة القوية التى تخبو أمامها كل العواطف الأخرى؟ وتعتبر هذه العاطفة عادة مقدمة أو صورة غير حقيقية للحب الجنسى. ولا شك أن صداقة الشباب تشبه الحب، وبخاصة في «الغرام» الملتهب

بين تلميذات المدارس الداخلية، ويزخر بالقبلات والمداعبات والعناق الحانى وكذلك تنمو هذه الصداقة بسهولة أكثر إذا ما كانت الظروف أو الحالة المزاجية مواتية لتأخير التفتح الجنسى الفعال. وأخيرًا، فإنَّ الحالات التى تهوى فيها الصداقة إلى درك الانحراف في الجنسية المثلية، تعتبر دليلا مقنعًا على وجود الصداقة التمهيدية أو المولدة للحب. ومع موافقتنا على هذا الرأى، يبقى لنا أن نلاحظ في معظم الحالات، عاطفة من المودة والحنان، تخلو تماما من أى مظهر جنسى. فهل يجب إذن أن نذهب إلى النقيض وأن نعترف -كما يعتقد حديثًا- بالتمييز تماما بين صداقة الشباب والحب؟ ويبدو أن كلا التفسيرين غير صحيح، إذ إن الصداقة الطبيعية بين الشباب ترتبط تماما بنشأة الحب، ولكنها ليست صورة مصغرة له. ولكى نفهم طبيعة الحب يجب أن ندرسه:

أساسان للحب الإنسانى: جاء في «مذكرات» أمييل Amiel: [1] «إننا نتحدث عن الحب قبل سنوات من معرفتنا له، ونحسب أننا نعرفه لأننا نسميه أو لأننا نكرر ما تتحدث به الكتب عنه. وهكذا لا نصادف إلا جهلا له درجات كثيرة، ودرجات من المعرفة الوهمية» ويمكننا تطبيق هذه الملحوظة على الحياة الفعلية كلها في المراهقة، إذ إن هذه الحياة تعرف الكثير من النشاطات التمهيدية. ولكن هذه الملحوظة صادقة تمامًا فيما يختص بالحب، فإن الشباب من الجنسين يحلمون بالحب قبل أن يشعروا به، ويمكننا أيضًا أن نقول إنهم يعرفون «ترقب الحب» على شرط أن نضيف أن هذا الترقب ليس أملا في معجزة تقع، بل ترقبها نشيطا، فعالا، يجعل الشباب يسعى دائما وراء العناصر الأساسية للحب.

فما هى هذه العناصر الأساسية؟ وأرى فيها عنصرين يعيشان منذ هذه اللحظة، ولكن يلزمهما أحيانا وقتا طويلا كى يتفتحا في وحدة متناسقة، وقد لا يمكنهما ذلك على الإطلاق. وهذان الأساسان هما: الغريزة الجنسية وعاطفة المودة.

ولا شك أن نشأة الحب ترتبط بنمو الغريزة الجنسية في لحظة البلوغ ولكن

---

(١) كاتب سويسرى من القرن التاسع عشر.

لا يعنى هذا أن هذا الدفع يولد الحب، وأن أحدهما يفسر الآخر ومع ذلك لا يمكننا فهم الحب الإنسانى الطبيعى دون تفتح الغريزة. أما عاطفة المودة التى تزدهر في نفس اللحظة، فهى المكون الآخر اللازم للحب، ولكنها أيضًا ليست هى الحب، بل يبدو هذا الحب كنتيجة ونشاط متميز يجد جذوره في الغريزة والمودة ويتغذى عليهما لكى يفوتهما في النهاية، وهو اتجاه إلى الوحدة وإلى الكمال السامى.

ويمكننا الآن أن نحاول تعريف الصداقة بين اثنين من الشباب من نفس الجنس، بالنسبة للحب. فالصداقة تقوم على أساس من المودة، ومن هنا يكون التشابه بين الحب وإمكانية التحول إلى الانحراف الجنسى أو إلى حب مشوه إذا ما امتزج الدفع الجنسى بالمودة. ولكن إذا ما قويت المودة منذ البداية، فهى تعطى صداقة، ثم يأتى إلحاح الغريزة الجنسية، فيصير الفرد عندئذ قادرًا على أن يحب شخصًا من الجنس الآخر. ويمكن أيضا لما حدث على التوالى أن يتم في نفس الوقت فيجد الحب الذى يتفوق فيه الجانب الجنسى ما يوازنه في الصداقة العميقة النقية، ولكن مع شخص ثالث. وهكذا تبدو صداقة الشباب قريبة من الحب، ولكنها تتميز عنه، ومع ذلك يمكننا أن نرى أن التفاعل السيئ بين المودة والجنس يؤدى أحيانا لدى المراهقين إلى خلط بين العاطفتين.

نشأة الحب عند الشبان: ومع هذا التبسيط الكبير يبدو لى أنه يمكن دراسة نشأة الحب من خلال مشكلات ثلاث: فيجب أولا أن يتمكن الدفع العضوى من الثبوت على شخص آخر من الجنس الثانى. وبعد ذلك يجب على الغريزة الجنسية وعاطفة المودة تحقيق اتفاق متناسق يسمح بقيام الحب. وثالثا يجب انتظار نهاية النمو البيولوجى النفسى قبل إنتاج الحياة الجنسية والعاطفية للشخص للبالغ. ولما كانت هذه المشكلات تظهر بشكل مختلف تبعا للجنس، كان علينا أن نواجهها أولا عند الشاب، ثم نرى ما تختلف فيه عند الفتاة.

سن البراءة: ولا تملك الغريزة الجنسية التى بفضلها يستمر النوع، منذ لحظة ظهورها، نفس الخصائص الملحة ذات الوجهة الواحدة التى ستكون لها فيما

بعد. فقد رأينا أنها عند البلوغ تكون حائرة مخدرة، كما لا يمكن أن نعلم وقت بدايتها، وتلزم سنوات عديدة قبل أن ترسخ وتتحدد وجهتها. وتختلف التى تتبعها تبعا للأفراد، إذ الطاقة الجنسية بدورها النوعى هى في نفس الوقت أكثر العناصر النفسية فردية، ولذلك كان من العسير إيجاد مكان لها في تخطيط عام.

وتظهر الغريزة الجنسية عند الولد في البداية كانتباه للجسم وبخاصة للأعضاء التناسلية التى تصدر عنها الإثارات الأولى. ثم يزيد الفضول إزاء كل ما يتعلق بالجنس، وهذا ما تشهد به قراءات المراهق وأغانيه، ويلاحظ كثيرًا بعض الحيرة على المراهق الشاب وهو في رفقة فتيات من سنه، وقد يعتريه أيضا شىء من العداء لهن، ومع ذلك تعبر هذه الحركات الخرقاء الهوجاء عن اهتمام جديد بالجنس الآخر. وإزاء تسلط هذه الانفعالات عليه، فإنه لا يتطلع إلى ما هو أبعد منها. وتستمر هذه المرحلة من سن الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة، ويعبر فيها بالطيش والعدوانية عن رجولته الوليدة، وتتصف هذه المرحلة بظهور تأخر مدرسى مألوف في المدارس تحت اسم «أزمة الصف الثالث» وتلازم هذه الدفعة الغريزية في نفس الوقت حاجة عميقة للحنان، «وهذا هو سن البراءة» الذى يحب الحب ولا يجرؤ عليه وينشد: «لا أعرف أى لهيب قد نفذ إلى أعماقى، فلم أعد أسيطر على حواسى...».

ثم يقوى الاهتمام بالجنس الناعم، وهذه هى اللحظة التى ينتظر فيها الشباب الفتيات عند باب المدرسة، أو صديقة شابة عند خروجها من المكتب الذى تعمل فيه. ويعرفون الغزل، ويحاولون إثارة الاهتمام والإعجاب بهم.

انحرافات الغريزة: ولكن قبل أن يصل المراهق إلى هذه المرحلة، يمر بفترة من البلبلة، فإن الدفع الجنسى يتجه في قوة إلى الجنس المقابل فإذا ما قوى دون أن يجد توجيها طبيعيًا له، فإنه يؤدى إلى السعى وراء الإشباع الذاتى في العادة

السرية أو «رذيلة الوحدة». وهذا الشكل من العشق الذاتى مألوف في البلوغ، وقد لوحظ من قبل عند بعض الأطفال وكذلك بعض الرضع، ولكنه ينتشر كثيرًا فيما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة. حتى يكاد يرى فيه بعض الكتاب علامات النمو في هذه المرحلة، التى يرتد فيها النشاط الجنسى إلى جسم الشخص نفسه دون أن يشعر بحاجته لوجود رفيق ويتفشى هذا العشق الذاتى كالمرض المعدى في المدارس الداخلية، لأنه يخضع للتقليد، ويقود إليه الكبار من هم أصغر منهم سنًا، وتتيح له كذلك الحياة العائلية الفرصة عن طريق الأخوة والخدم. وهناك أسباب موضعية تلائم العادة السرية. منها مثلا كل ما يؤدى إلى الحكة في المنطقة التناسلية وملامستها، كما أن لها دلائل معتادة نعرفها جميعًا: وهى شحوب الوجه وإحاطة هالات بالعين وظهور التعب والخمول وصعوبة تركيز الانتباه، وفى معظم الأحيان يتزايد خجل المراهق ويميل للعزلة وينام نومًا مضطربًا.

وكان يرى قديمًا في هذا النوع من الانحراف الغريزى شيئًا مروِّعًا، وكان يرجع إليه كل الأحداث العصبية أما الآن فإن معظم الأطباء تقل قسوتهم إزاءه. ومع ذلك تظل العادة السرية كعادة مرذولة ترهق المراهق وتخلق الوساوس لدى ذوى الطباع الحساسة مع شعورهم بالخجل والإثم، كما تبدو كسبب لبعض الأمراض العقلية، وتشيع عند أصحاب التأخر العقلى خاصة في حالات البله، فتأخذ هنا شكل عادة قبيحة تتم بطريقة لا شعورية. وللعادة السرية أثرها في الاضطراب النفسى، ولكنها ليست سببًا له، وفي الواقع ليست العادة السرية ضارة إلا إذا استمر وجودها لما بعد أزمة البلوغ، فهى ليست إلا انحرافًا وقتيًا للاثارة الجسدية التى لم تتحدد وجهتها بعد، ولكنها عند البالغ تكون سعيًا وراء الإشباع الذاتى الذى يعبر عن نكوص عاطفى يهتم به الطب.

وفى العادة لا يكون هذا الانحراف خطيرا إذا حاولنا القضاء عليه بالحياة الصحية النشيطة مع تفادى كل أسباب الفراغ والوحدة، وكذلك إذا عرف الأب كيف يحذر ابنه من العواقب التى قد تجدها هذه الرذيلة على مستقبله، ولكن المهم

ألا يتصور المراهق أنه قد صار وحشًا لمجرد أنه استسلم للإغراء، فما العادة السرية إلا واحدة من الرذائل، بل ويمكن إصلاحها أسهل من غيرها على أن يجد المراهق بالقرب منه دعامات رحيمة حازمة لا وجوها صارمة قاسية.

وهناك انحراف ثانى أكثر خطورة، هو الجنسية المثلية، أى السعى إلى إشباع الغريزة الجنسية مع شخص آخر من نفس الجنس، وتسمى باللواط Le Pederastie ويتفق الأطباء لحسن الحظ على ندرتها بين الشباب، ولا تكون المبادءة منهم، بل عادة من بالغ منحرف يبحث له عن رفيق، ولذلك كان من الضرورى أن نُجنِّبَ المراهقين ارتياد الأماكن المشبوهة.

الحب الخيالى والحب الجسدى: فإذا ما ثبتت الغريزة الجنسية بطريقة طبيعية على الجنس الآخر، يجب أن تتوافق مع عاطفة المودة. ولكن هذين المكونين للحب يتطوران على مستويين مختلفين ويمكنهما البقاء منفصلين لمدة طويلة. ولذلك يشعر الكثير من الشباب بتعلق كبير وعاطفى نحو امرأة أو فتاة، والعواطف التى تعمل في هذا التعلق هى، إلى جانب المودة، الإعجاب الشديد والإخلاص والحاجة إلى فرض الحماية أو تلقيها. وتعتمد اللذة التى يشعر بها الفرد على وجود الشخص المحبوب وعلى اتفاق العاطفتين. ولا تختفى هنا المصاحبة الحسية، ولكنها تقع بالقليل، وتلعب أحلام اليقظة دورًا رئيسيًا في هذا الحب الممزوج بالحنان، ويؤدى إلى احترام المرأة، وقد يأخذ أحيانًا شكلا صوفيًا، ولكنه لا يخلو من أخطار الأوهام التى يخلقها والتناقض الذى يقوم بين الحقيقة والمثل الأعلى. ولا يكون هذا الحب طبيعيًا عندما لا يكون سوى مرحلة تسبق النمو الكامل للغريزة. ويشيع الحب الخيالى بين ذوى الطباع الرقيقة الذين تفزعهم الطاقة الجنسية ولا يسعون إلا إلى الكمال. ويتحول الحب الأفلاطونى بذلك - مثل العشق الذاتى، إلى حب غير طبيعى عندما يستمر إلى ما بعد المراهقة، إذ قد يؤدى إلى الفصل بين الإثارة الجنسية وعاطفة المودة، فيستحيل ظهور الحب الإنسانى الحقيقى.

والحب في واقعه تَملُّك، وكلنا يعرف أن هذا التملك قد يفشل، وهذه هى

الحال عندما تتخلف إحدى القوتين اللتين أتينا على ذكرهما، فنرى فيه أحيانا مصدرًا للذة الجسمية، وأحيانًا مصدرًا للذة المعنوية. وكلا الاتجاهين خطير، وهنا يجب أن نذكر قولة باسكال Pascal: [١] ليس الرجل بملاك ولا بحيوان. وفى أحيان أخرى، يتجاور العنصران دون أن يثبتا على نفس الشخص: ومن هنا يكون التراوح والازدواج في الحياة، فلا يقنع الإنسان بإشباع. وكم نرى حالات فشل جزئى عندما يقاوم الشباب فورة الجنس وفعاليته بالهروب إلى العزلة والخجل المرضى، أو عندما يتعلقون بعواطف طفولتهم وعاداتها بل وملابسها أيضا! ويظهر عند البعض الآخر خوف من الفشل في الحب أو الانطواء الحزين بعد الفشل، ويترتب عليهما وساوس خطيرة.

وتتنوع أنماط التوافق بين الغريزة والمودة، وكذلك التوقيت بينهما وهذا ما يخضع للحالة المزاجية والوسط والأخلاق العامة. فمثلا نرى فى أول الأمر نشأة الرغبة والسعى إلى الرفيق والتجربة الجنسية الأولى وتكون إما ملائمة وإما تترك في النفس امتعاضا كبيرًا، ثم علاقة أو عدة علاقات تكبر المودة من خلالها، وأخيرًا يكون الزواج.

وعادة لا ينتهى تنظيم الوظيفة الجنسية بنهاية المراهقة، ويكون أكثر تبكيرًا عند العامل منه عند الطالب. ويكون ظهوره المبكر كنوع من الاختبار يصلح لتحديد شكلين لوجدان الشباب، بل وربما أسلوبين جوهريين للنمو سنحددهما فيما بعد[٢]. ويبدو أن المبادأة المبكرة ترتبط بتطور متدرج وخيال ضعيف نسبيا. أما المبادأة المتأخرة على العكس، فتكون كخاتمة للنمو عن طريق ظهور هزات مفاجئة وحماس فياض في الخيال العاطفى.

وهكذا يأتى الحب القوى تارة بالرغبة وتارة بالمودة، ولكنه لا يزدهر إلا مع التنسيق بين الاتجاهين، فإذا لم يقم هذا التوفيق الحساس، فلن تكون هناك إلا حلول عرجاء مهزوزة يطلق عليها اسم الحب، ونجد صورًا عديدة له في المسرح والقصص المعاصرين.

---

(١) عالم رياضى وطبيعى وفيلسوف وكاتب فرنسى في القرن السابع عشر.

(٢) فى الفصل القادم.

البلوغ وسن الزواج: بقيت لنا مشكلة ثالثة، أقل تعقيدًا ولكنها حساسة، فقد رأينا وجود فترة من عدة سنوات بين ظهور التهيجات على الجسم واللحظة التى يصلح فيها الفرد للزواج، أى بين سن البلوغ **Le puberte** وسن الزواج **La nubilite**، وتبلغ هذه الفترة حدها الأدنى عند البدائيين، إذ يكاد يعقب الزواج عندهم البلوغ، ولكنها تطول في المدنية الحديثة إذ لا يستطيع الشاب بعد البلوغ مباشرة أن يؤسس بيتا أو أن يعول أسرة، ومن هنا كان الاتفاق على قيام فترة بين حاجات الجسم والضرورات الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية، وهى فترة من الانتظار القاسى، ولكن لحسن الحظ يمكن شغلها بأنواع من النشاط تسمح بتوجيه النزعات الجنسية الناشئة إلى مجال الفكر أو الفن أو الرياضة أو الخدمة الاجتماعية، وتعتبر هذه الأنواع من النشاط مسكنات موفقة، يمكن الاعتماد على ما فيها من تغلب على عقبات لجذب الشباب إلى تجنب الإغراءات والانحرافات الخطيرة وحفظ مستقبلهم ومستقبل أسرهم المقبلة. وعلى كل تربية تستحق أن تسمى بهذا الاسم، أن تلائم هذا الانتظار، ولن توفق إلا إذا كانت لا تشترط تأخير التنظيم الجنسى طويلا، أى أن تحبذ الزواج المبكر.

الحب عن الفتاة المراهقة: وتختص المعلومات السابقة بالشباب، ولا تهم الفتيات إلا جزئيًا، وعلينا هنا أن نذكر بعض الاختلافات الجوهرية بينهما.

فإن الإثارة الجنسية لا يتحدد موضعها بوضوح عند البلوغ، بل تظل عند الفتيات منتشرة لوقت طويل، وتتوزع على الجسم كله، ولذلك يقل شيوع العادة السرية بينهن، ويقوم بدلا منها التأمل الذاتى بدور أكثر أهمية. ويدل الاهتمام الذى يعلقنه على جمال أجسامهن وزينتهن، على اتجاه إلى النرجسيين، إذ لا يصيبهن إلا القليل من خجل المراهقين، ولكنهن يملكن بدلا منه «حياء» طبيعيا، ويختلط عندهن برغبة كبيرة في إثارة الإعجاب والتحفظ. وتحيلهن ظهور الغريزة إلى «غانيات»، ويتحكم فى هذا الحياء وهذا التبرج اتجاه عام أكثر سلبية، يتحول أحيانا عقب مرحلة الاضطراب السابق للبلوغ، إلى كسل يتعارض مع الميل للعراك والهياج عند الشباب. وأخيرًا، يحتل الخيال العاطفى عندهن منزلة كبيرة، فتكفى بعضهن مقابلة أو عدة عبارات عادية ليؤلفن عليها قصة حقيقية تدور بأكملها في

رؤوسهن. وتنمو عندهن المودة قبل الرغبة وكلنا يعرف أن اللذة الجنسية تتأخر كثيرًا في التفتح عند المرأة. وتمر المراهقات عادة بمرحلة من المودة الزائفة وصفها مندوس، وذلك قبل أن تبلغن «سن الرشاقة **L'age de grace**» في حوالى الثامنة عشرة، وهذا ما يعنى أن نموهن العاطفى يكون أكثر تبكيرًا منه عند الأولاد، كما تختلف عنه كذلك.

وتظهر هذه الاختلافات، أو كما يقول علماء النفس، هذه الخصائص للتمايز الجنسى **Le dimorphisme Sexuel** بحركات مميزة لها، كما في التناقض بين الحركات المرنة التى تكاد تتضح فيها الأمومة، عند الفتاة، وحركات الخشونة والرجولة عند الشاب.

ومع ذلك تحتفظ الحياة العاطفية للمراهقين بخصائص الجنسين في بعض النواحى، ويتضح هذا اللبس أكثر عند الولد، في أشكال جسمه وفي جهازه النفسى كذلك. ولعلك تذكر سحر المراهقين الذين رسمهم ليونارد دافنش، وهناك نظرية حديثة، هى نظرية مارانون **Maranon**، ترى طبيعية هذه الظواهر الطارئة في الازدواج عند المراهق، بينما ترى ظهور خصائص الرجولة عند الفتاة المراهقة شذوذًا، وهكذا يمر الرجل بسرعة عند البلوغ بمرحلة أنثوية قبل أن يصل إلى الرجولة. أما نمو المرأة فيتوقف على العكس من ذلك عند هذه المرحلة، فلا تصل إلى رجولة كاملة إلى مع سن اليأس، وعندئذ يزيد عندها نمو شعر الوجه، وتصير شخصيتها أكثر صلابة. ولسنا بحاجة إلى قبول تفسير ازدواج الجنس كى نصل إلى الاعتراف بحقيقة وجود مرحلة من «التردد بين الجنسين» ويلزم لها توجيه جنس دقيق واحتياطات كثيرة يجب على المربى أن يتخذها.



الفصل الثالث

آفاق جديدة

١- تأكيد الذات:

يرى كثيرون أن المراهقة تقتصر على انتفاضة مزدوجة في الجسم والقلب كما أوضحنا من قبل، ولكن الحقيقة أكثر تعقيدًا من ذلك، فإذا ما بقينا عند المستوى النفسى، نجد أمامنا طريقين جديدين علينا أن نسلكهما، ورغم قلة معرفتنا بهما إلا أنهما لا يقلان أهمية عن باقى الطرق، ويتيح لنا أحدهما ملاحظة حركة تأكيد الذات عند الشباب، بينما يوضح لنا الآخر نموهم الفكرى.

تطور الخلق: يتكون خلق الطفل، أى طريقته الخاصة في السلوك تبعًا لميوله، وينتظم من خلال نموه، ويبدو في أول الأمر متقلبًا غير واضح، ولكنه يتضح شيئًا فشيئًا إلى أن يثبت في سن النضوج. ولا يكون في البداية سوى تعبير غير متناسق للمزاج الفطرى، ثم يحمل بكل التجارب التى تقيم الشخصية الاجتماعية. وأثناء النمو، تصيغ التجربة المستمرة التى يمر بها الفرد عند مواجهته للوسط الذى يعيش فيه، فكرته عن نفسه، ويتحدد تمييزه غير الكامل أولا، بين الأنا واللا أنا.

ولكن كما يحدث في الأشكال الكبرى الأخرى للحياة العقلية، لا يسير تطور الخلق على وتيرة واحدة، بل له إيقاعه، ويمكننا أن نلاحظ، مراحلا من الاستيعاب الهادئ «تفصل بينها» مراحل من الهياج. فبينما تعتبر الطفولة الثالثة واحدة من الفترات الهادئة التى ينظم فيها الخلق دون صعوبة في تكيف ملحوظ بين الفرد وبيئته، تتصف سنوات البلوغ على العكس بالقلق الذى يجعل التكيف مزعزعًا عسيرًا، كما تمتاز بالثورة وتأكيد الذات. وهذه تذكرنا بلحظة حرجة أخرى تقع خلال مرحلة الطفولة الثانية وقد وجد فيها والون **H. Wallon** أول تعبير عن الشعور بالذات. ويمكنك أن تلاحظ ذلك أنت أيضًا عند أصغر أولادك إذا ما كان في الثالثة من عمره.

ولا تنعدم جدوى فترات ثورة الأنا، بل ولا يجب أن نعتبرها كنوع من الجنون العابر نتحمله كشر لا بد منه. ولكنها على العكس من ذلك فرصة يتحقق فيها تقدم سريع حاسم، وهكذا يتسنى للطفل فى المراهقة اكتشاف أوساط أكثر اتساعًا، وكذلك اكتساب نشاطات جديدة، وتدريب اجتماعى يسمح له بإقامة علاقات جديدة بينه وبين الكبار. وكذلك يصل إلى فكرة أكثر عمقًا ورزانة عن نفسه، وتتشكل شخصيته كلما قوى شعوره بذاته. وتكون هذه الشخصية في أول أمرها متقلبة، وتأخذ تعبيرات متلاحقة تبدو متعارضة في نظر الفرد نفسه، وفى نظر الوسط المحيط له، ولكن هذه التعبيرات تحقق للشخصية كيانها، ويشغل هنا الخيال نفس المكان الكبير الذى يأخذ في وجدان المراهق ويزيد الخلط بين حقيقة الفرد ومظهره. ويكمن الخطأ في الاعتقاد أن هذه التجارب تخلو من الأهمية والجدوى، مثلها في ذلك مثل تجارب الحياة الجنسية الناشئة، ولكنها على العكس من ذلك علامات على التوجيه الصحيح.

وكانت أولى الخطوات في الحياة الاجتماعية تعتبر دائمًا كحدث خطير تحيطه هالة من الاحتفالات، وهكذا كانت الشعائر الطقوسية تصاحب عند البدائيين ظهور البلوغ، ويعنى بالنسبة لهم إمكانية الحفاظ على النوع والانتقال من الحياة العائلية إلى حياة القبيلة والبدء في حياة نشيطة، وكان الهدف من الأعمال الغريبة - وكثيرًا ما كانت وحشية - هو إدراج الشباب في معتقدات القبيلة وتقاليدها. فهى تعد الشاب للحرب، فكان عليه مثلا أن يتحمل خلع سن أو الوشم في صمت: أما الفتاة، فكانت تشترك في أعمال جماعية لجنسها، ويعبر الصيام في خلوة وحمامات التطهر عن دورها المقبل كزوجة وأم. وكانت لحضارات الأزمان القديمة احتفالاتها أيضًا، ففى أثينا كان الشاب يعتبر مراهقا في حوالى الثامنة عشرة، وفي روما كان الشاب يخلع الثوب الأبيض ليرتدى عباءة الرجال. وفي عصور الإقطاع، كان الغلام يتحول فى حوالى سن الرابعة عشرة إلى فارس يصاحب سيده إلى الحرب. وقد تركت هذه العادات القديمة آثارها في أيامنا هذه، ويظهر ذلك مثلا فى أول حفل راقص تصطحب إليه الفتاة في الأوساط

الميسورة. ويلاحظ هولنجورث L,S. Hollingworth أنه يمكننا أن نجد في احتفالات البلوغ أسئلة رئيسية ودائمة يختص بها علم نفس المراهقة.

والتدريب على الحياة الاجتماعية في الوقت الحاضر يبدو أكثر صعوبة منه في الألوان البدائية للحياة، ويظهر تكوين الشخصية كانتصار حقيقى. وفى الحب، تكون الخبرات التى تصاحبه كمشكلات يجب حلها، أما هنا فنجد مشكلات دقيقة ومباشرة، لا مجرد ضرورات عامة للنمو العاطفى. فاختيار المهنة والاتجاه لتأثيث منزل والموقف الذى يتخذ من الوالدين والآخرين، كل هذه تبدو كمشكلات في أعين المراهق، وهكذا نبعد عن مشكلات الطفل الصغير، فلم يعد كافيا الجواب القاطع الذى يصدر عن الشخص الكبير، بل يجب إعطاء جواب شخصى، وعلى هذا الجواب يتوقف نجاح تأكيد الذات في تكيف مشع بالوسط. ولكن الذات الشابة لا تتأكد فقط عند المستوى الاجتماعى، بل تأخذ أعماقها في المستوى النفسى في مرحلة الإحساس بالذات وتعتبر الشخصية التى تتكون هكذا نتيجة لهذا النشاط المزدوج من الاتصال والانطواء. وقد تفشل كل هذه الجهود، وقد تضيع في دوامة من الاضطراب والقلق، ويحدث هذا عند الأفراد السويين في أنماط مختلفة، ولكن في كل الحالات يكون دور المربى عسيرًا جدًا.

وهكذا كان علينا أن ندرس حركة تأكيد الذات من وجهة النظر الاجتماعية والنفسية، وبعد ذلك سنبحث في الأشكال التى يأخذها وفى أنواع الفشل الرئيسية التى يتعرض لها والنتائج التربوية التى تترتب عليه.

الرغبة في الاستقلال ورد فعل المعارضة: يظهر تأكيد الأنا الاجتماعية للمراهقين في مناسبات عديدة، ولكن دائما في صورة نشاط شخصى نوعا، وتعتبر المراهقة في الواقع انتقالا من الحالة نصف طفيلية عند الطفل إلى الحياة «المستقلة»، فتستبدل الوصاية بحالة يصير فيها الشخص مسئولا عن أفعاله، ويشهد القضاء الشرعى نفسه بذلك، فيتحرر القاصر، وهذه هى اللحظة التى يفك فيها المراهق قيده ويقلع، وهكذا يميل الشباب بطريقة غامضة ولكنها إجبارية إلى اتخاذ نوع من الحياة يختلف تماما عن الطفولة، فيتركون العادات

التى مضى عهدها إلى نشاطات جديدة، وكذلك العالم المغلق الذى عرفوه في سنواتهم الأولى ويستعدون لحياة تتحقق بها رسالتهم كبالغين.

وليست الرغبة في «الاستقلال» إلا تعبيرًا عن هذا التطور، ويزيد التململ كلما زادت قوة المراهق، وتثقل عليه كل سلطة، ويبدو كل ضغط عليه أقل احتمالا كلما كان غير قادر على فهم أهميته. وقلما يشعر بالحرية الغالية على الشباب إلا ككسر للقيود التى تعوق حركته.

وترتبط هذه الحاجة الجديدة بتوازن جديد يقوم بين رد فعل غريزيين أساسيين ينظمان سلوك الفرد عند مواجهته لبيئته: وهما «رد فعل التقليد» و «رد فعل المعارضة» ولعلك تعرف أن كل فعل يتم أمامنا يميل إلى أن يتكرر فينا، ففيه قدرة على الإيحاء والعدوى. ولكن هناك اتجاها آخرًا طبيعيًا أيضًا ويعتمد على الرفض والمعارضة. ويتضح كل من هذين الاتجاهين تبعا لمزاجنا وسننا . وكلاهما نافع، فيزيد الأول فينا استيعاب كل ما يعتبر غريبا علينا، بينما يزيد الثانى من قدرتنا على المقاومة وضرورة القيام بعمل مغاير. فإذا ما بلغنا حد التطرف يتحول الأول إلى محاكاة غير حازمة والثانى إلى معارضة لا طائل تحتها. ويوجد الاتجاهان مرتبطين بطريقة طبيعية في السلوك، ولكن بينما يتفوق رد فعل التقليد خلال الطفولة الثالثة، يزيد رد فعل المعارضة في أول المراهقة ويتحول تلقائيا إلى حب في المعارضة. وتتناقص القابلية للإيحاء بينما تقوى قدرات الكف والضبط، ويظهر ذلك بوضوح تام عند الأولاد في صورة عدوانية مقاتلة، أما رد فعل التقليد فيظل كذلك ويمتزج برد الفعل الآخر في صورة عدم تقليد، وهو شائع في هذا السن ويسمح بإتيان الجديد بأقل جهد، وليس هذا في الواقع إلا تقليدا معكوسا.

المراهق والأسرة: ويجد حب الاستقلال ورد فعل المعارضة مجالها للتطور في وسطين يقيمان أمام تأكيد الذات أكبر عدد من الصعوبات وهما الأسرة والمدرسة.

وقد تكون مشكلة العلاقة بين الوالدين والمراهقين أكثر تعقيدا في فرنسا عنها في أى مكان آخر لأن الأسرة تحتفظ هناك بأهمية فقدتها في البلاد

الأخرى: فيصطدم نفاد صبر الوالدين بإدراك يكون أحيانا غير كاف من الأبناء، ويؤدى هذا إلى أزمات وخيمة العاقبة.

والأسرة بالنسبة للطفل هى الوسط الطبيعى الذى يتمكن فيه من التفتح على خير وجه، ولكن منذ البلوغ، لم تعد الأسرة تكفى لنشاط الشباب، وبخاصة الفتيان منهم، وهكذا تبعث الأعمال المنزلية الضجر في نفوسهم، ولا يساعد المراهقون والديهم عن طيب خاطر، بل يميلون للتنزه مع أصدقاء يختارونهم، ويكفون عن الطاعة، ويصيرون سريعى الانفعال، وكثيرًا ما يصعب مراسهم، وتكون شكواهم في أغلب الأحيان لأسباب تافهة متناقضة، ويميلون للتغيير دون أن يعرفوا في أول الأمر إلى ما يهدفون، ولما كان لهم مظهر البالغين، على الأقل بقاماتهم وصوتهم، فإنهم يعتقدون أنهم قد صاروا أندادًا لوالديهم.

وأكثر ما يثيرهم عادة مشكلة اختيار المهنة ومشكلة الزواج.

فعلى معظم الشباب اختيار مهنة، وسواء كان ذلك لتوجيه دراستهم التى عليهم استكمالها، أو للتلمذة المهنية ويقع القرار الأول على الأسرة، فإذا كان اختيار المراهق مطابقًا لرغبتها، سارت الأمور على ما يرام، وإلا كان ذلك فرصة للصدام والأحقاد. وللمهنة دوران أكثر مباشرة في تأكيد الذات، فهى في الواقع رمز للاستقلال لأنها ستسمح للشباب بالتعيش من كسبهم، ولهذا كان للنقود الأولى التى يكسبها المراهق مذاقا حلوا، وفي الحال يرتفع مؤشر الثقة بالنفس إلى القمة، وتتعقد الأمور إذا ما احتفظت الأسرة بالمرتب لنفسها، وقد عرفت شبانا كانوا على استعداد لإعطاء كل النقود التى يكسبونها لأسرهم، ولكنهم لم يستطيعوا التغاضى عن سلب الأسرة لمرتباتهم كما لو كان ذلك أمرًا طبيعيًا. أما الطالب الذى لم يكسب شيئًا بعد، بل وعليه أن يأخذ مصروفا من أسرته، فهو يحس في أغلب الأحيان بنوع من الغضب وخجل لا يعرف كنهه، ولكنه يجد عزاء نسبيا في التمتع بحرية استعمال هذه النقود. ولعلك تعرف أشخاصًا يرتاحون كثيرًا لخداع الآخرين لهم بصفة مستمرة، ففى هذا مع ذلك خير دليل على قيام الشخصية.

والغراميات، أو عواطف المراهقين بعامة نحو الغرباء، مصدر من مصادر المشكلات العميقة للأسرة، فهذه حياتهم الخاصة، والويل لمن يمد إليها يده الطائشة! ويخشى الوالدان -وهم على حق- ما قد يترتب عليها من عواقب وخيمة، ولذلك كان على الوالدين أن يضفوا على رقابتهم الضرورية مهارة لا تعرف الكلل. وعادة ما يثار عند نهاية المراهقة، موضوع الزواج بالنسبة للفتاة، فإذا لم يجد المقتدم لخطبتها رضا الأسرة، فكم من دموع تذرفها! أما إذا فرضته عليها الأسرة بكشل ما، فكم من أخطار يخشى عليها منها في المستقبل. أما بالنسبة للشاب فتقل الصعوبات لأنه يتزوج في وقت متأخر، عندما يمكنه تكسب عيشه، وبذلك يستطيع أن يدافع عن اختياره.

ويضاف إلى هذين المصدرين من مصادر الأزمات الممكنة عدد كبير من الأحداث اليومية الصغيرة: كالملاحظة التى يبديها الوالد عند رؤية ولده وهو يدخن أول سيجارة أمامه ويعتبر هذا ملاحظة غير لائقة، والرقابة التى يفرضها الوالدان على الخطابات التى يتسلمها أو الكتب التى يقرؤها ولا يغتفرها لهم الابن، وكذلك أزمة ربطة العنق التى لا يمكنه شراؤها. وسترى أن الوالدين يحتاجون أزاء ذلك أحيانًا لجرعة من الصبر تفوق طاقتهم كبشر.

ولا يظهر تأكيد الذات دائمًا في صورة معارضة، ومع ذلك يجب أن نعترف بالمراهقة كفترة حرجة تمر بها العلاقات الأسرية، وهذا ما أثبته بوزمان Büsemann، فهى مرحلة حاسمة في الانفصال التدريجى بين الوالدين والأطفال، ويتم هذا الانفصال أثناء النمو، ويبدأ عند الولادة بالانفصال عن كيان الأم، ويستمر في النظام الغذائى ودخول المدرسة، ثم يكتمل بما يسمى، بالنظام النفسى، عندما يترك الفرد الأسرة ليكون لنفسه بيتًا جديدًا.

ويعترى عاطفة البنوة كذلك تغيير عميق، فقد كانت بمثابة الشىء المطلق والغريزى لدى الطفل، إذا كان الأب والأم يمثلان في نظره الكمال والقوة والقدرة ذاتها. ثم تأتى الطفولة الثالثة ببعض التغيير، أما في المراهقة، فتزيد هذه

العاطفة عمقًا وتحاط بهالة من الحياء، خاصة لدى الطفل الذى تغيظه بسهولة الآن نفس المداعبات التى كان يتلقاها وهو طفل. فتفقد هذه العاطفة صفتها الغريزية التى تعوضها بقوة إرادة تقوم على العرفان بالجميل والتقدير والحب مع الرضا. وتتخذ أحيانًا نفس اتجاه العاطفة الأخوية عندما يحاول الأب أن يكون صديقًا لابنه، والأم كاتمة أسرار لابنتها، ولا تقوم هذه الاتجاهات، وهى شائعة في أيامنا هذه - على أساس من «البنوة»، ولذلك يخشى أن تخلق مواقفا زائفة أو أن تتسبب في حالات من البلبلة الخطيرة.

ومن العسير القول بأن تأكيد الذات يزيد نوعًا ما من عمق عاطفة البنوة، ولكن من المؤكد أن مركز الوجدان ينتقل مع المراهقة، وأن الحب العائلى يصير إحدى مكونات للعاطفة عند الشباب.

ويمر الحب البنوى أحيانا بأزمة عاتية، وهذا ما يحدث لذوى الطباع الثائرة أمام الوالدين المتسلطين أو على العكس، أمام الوالدين الضعيفين، فقد ينشأ شعور عدائى يتناوب أحيانا مع الحب القديم حتى يهدأ بالتفاهم والتراخى، وأحيانا أخرى يذهب إلى حد القطيعة مع الأسرة، وهكذا تزول التبعية بالهروب من منزل الأسرة، وأحيانا بالعنف، وأخيرًا بالقطيعة النهائية. وقد عالج الأدباء هذا الموضوع كثيرًا، وهو لسوء الحظ شائع.

المراهق والمدرسة: والمدرسة هى الوسط الثانى الذى يتيح للأنا المراهقة فرصة التفتح وبخاصة إذا كان الشباب يعيش في مدرسة داخلية. وكثيرًا ما تعتبر المدرسة عقبة في سبيل الاستقلال المرجو، فما هى إلا بديل للأسرة، وهناك مع ذلك حالات يكون فيها الضغط المدرسى وسيلة لإظهار حلاوة الحياة في منزل الأسرة. ولكن يثير القانون المدرسى - حتى في أصلح الظروف - الضجر والسعى للتحايل لدى التلاميذ، ولعل أدرى الناس بذلك هم ممثلو هذا القانون من مشرفين وقادة بالداخلية.

ولا تحقق الدراسات نفسها إشباعًا للتلميذ المراهق الذى ينقم على قسوة جدول المدرسة ويجرى وراء هواية أو موضوعات لا يضمها المنهج فيقرأ في السر

مؤلفات جديدة بخاصة تلك التى يخفيها عن أعين مدرسيه ووالديه. ورغم ذلك فقد أثبتت بعض الأبحاث الحديثة أن الشباب - وبخاصة القاطنين بالأحياء الفقيرة - يجدون دائما في المدرسة إشباعًا كاملا، فهى تحررهم بلا شك من فقر الوسط الذى نشأوا فيه.

وإذا كانت المدرسة كمؤسسة اجتماعية تثير ردود فعل المعارضة خاصة، فإنها كمهد للثقافة، تمد الشباب بثروات الفكر والحضارة التى تسهم في تكوين شخصياتهم، فهى تدعوهم للتفكير، وتمدهم بأنماط تشحذ خيالهم وتدفعهم إلى تقليدها. ولكن شتان ما بين تأكيد الذات من خلال الكتب والدراسة، وتأكيدها عن طريق الاتصال المباشر بالواقع، وهذه هى حالة «الطفل المحمل بالأغلال» التى وصفها مورياك F. Mauriac [1]، ومع ذلك بقى أن نقول إن المدرسة تلائم العمل الصامت الذى ترسخ من خلاله الشخصية.

الأنا الشابة ووسط البالغين: وكلما تهاوت قيود التبعية التى كانت تربط المراهقين بالأسرة أو بالمدرسة، كلما أحست الشخصية الشابة أنها صارت أكثر قوة وحرية وامتلاء بالحماس والأمل، فتزيد من اتصالها بالجماعات المختلفة التى ستعيش معها، وهنا يتعرض تأكيد الذات لصعوبات جديدة.

فإن الشباب الذين تعلموا حرفة معينة، أو أتموا دراساتهم ويطمعون في مركز معين، يصادفون عند دخولهم الحياة العملية جيلا مستقرا لا يحسن عادة استقبال مثل هذه المطالب، وهكذا تقوم بين الشباب والمسنين معارضة لا يمكن تجنبها ويستمر حتى بعد النضج ويظهر الصراع بين الأجيال في المجال الفنى. وترى نفس المعارضة في مجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع أيضًا، وكن على ثقة أن الذين كانوا في الثامنة عشرة أو العشرين عندما قامت الحرب العالمية الثانية يميلون إلى تمييز أنفسهم عن الشباب السابق لهذه الحرب. أما في زمن السلم، فإن المشكلة تحل نفسها بنفسها، فمع السن وبالتجربة، تهدأ نفوس الشباب

(١) كاتب فرنسى معاصر.

ويستولون شيئًا فشيئًا على مكان المسنين. ومع ذلك، فقد تسمح بعض الأحداث -كثورة مثلا- للشباب بالوصول السريع، في وقت مبكر أحيانًا، إلى الأعمال الجادة.

ويثير اندماج الشباب في جماعة البالغين مشكلة ثانية: فإن تأكيد الذات، وهو حدث طبيعى وضرورى لهذه السن، يؤدى دائمًا إلى تنافر بين الفرد والوسط الذى يعيش فيه. وقد لاحظ مندوس Mendousse أن المراهقين يسعون إلى تكييف الوسط لهم أكثر من تكيفهم بالوسط، وهذا لانبهارهم بالأنظمة الاجتماعية التى يلتقون بها عند خروجهم من الأسرة أو المدرسة، ويثور البعض، ويستسلم البعض الآخر، ولكن قلة منهم فقط هى التى تصل إلى تكيف كامل؛ وإذا استمر رد فعل المعارضة حتى ما قبل النضوج، فإن هذا يؤدى بالمراهقين إلى الفردية والسعى قبل كل شىء إلى إشباع ميولهم، ومن هنا ينشأ العصيان الفوضوى أو يكون الهروب إلى الحلم والخيال لذوى الطباع أقل خشونة ولا يصل إلا الموهوبون لفرض وجهات نظرهم على عصرهم، وهذا ما نراه عند الفنانين العباقرة الذين يختارون سبيل الثورة. أما إذا انتصر رد فعل التقليد، فإن الفرد يقبل قوانين الجماعة في مجموعها، وكذلك عاداتها القبيحة لمجرد أن «يفعل مثلما يفعل الآخرون»، وهذا ما يؤدى إلى نوع من المطابقة الخاملة.

ويبدو أن هذين الحلين متطرفان وخطيران، وأن ما يهدفان إليه هو التوفيق بين القوى الفردية وقواعد الحياة الاجتماعية، وليس أصعب من هذا التوفيق على المراهقين، إذ يبلغون حد التطرف ويعرفون كيف يتخذون موقف المعارضة، وقد ترغم الظروف على ارتجال أساليب تتيح لهم التخلص من هذه الخطوة بأى شكل من الأشكال، ولكن لا يبدو أن الشخصية لا يمكنها أن تقوم في تجانس على مثل هذه الأسس التجريبية الخالصة، إذ ينجم عن ذلك مشكلات خلقية سنتعرض لها فيما بعد.

الإحساس بالذات: رأينا حتى الآن كيف تتحدد معالم الشخصية باتصالها بأوساط مختلفة، ولكن يصحب تأكيد الذات وهو عمل خارجى، عمل آخر نفسى داخلى يؤدى إلى الإحساس بالذات عن طريق التفكير.

فيلاحظ، إلى جانب الرغبة في الحياة الاجتماعية لدى الشباب، رغبة أخرى تبدو مناقضة للرغبة الأولى، وهى الرغبة في العزلة واتخاذ مجال مستقل، وهكذا يتخلص المراهقون من التكيف الاندماجي بالأشياء، وهو من خصائص الطفولة، ويقوم فاصل بين تجاربهم وآرائهم وتجارب وآراء كانت تأتى بها البيئة المحيطة بهم معدة ناضجة إليهم، كما يهوون الأسرار ويشعرون برغبة في الابتعاد والتفكير والتأمل، وتظهر لديهم القدرة على مخاطبة أنفسهم[١]، وبذلك يزدوج العالم الخارجى الآن فصاعدا بعالمهم الداخلى، وهو عالم العواطف والذكريات والآمال ويأخذ اكتشاف هذه الحقيقة النفسية التى تقوى مع البلوغ، شكل الإلهام، ويجعل هذا الاتجاه إلى التفكير، وكان من قبل غير ثابت أو كامل، الازدواج اللازم للتأمل الباطنى ممكنًا، وينتظم هذا التأمل، وكان فى أول عهده بدائيا غير راسخ، كوظيفة عقلية حقيقية، ويمكنك أن تقدر مدى تقدم التحليل الداخلى إذا ما قرأت بعض المذكرات الخاصة بالمراهقين. مثل مذكرات مارى باشكيرتسيف Marie Bashkeirtseff[٢] أو مذكرات فرانسوا الغريب التى كشف لنا فالنسان Valensin عنها حديثا.

ويؤدى الاهتمام بالتفكير إلى إعادة صور الأنا وجعلها تبدو كما لو كانت تعبيرًا عن نشاط الضمير الفردى: وهذا واقع يتضح بالذات لدى المفكرين من الشباب الذين يعشقون أناهم الداخلية وكأنها شخص يحبونه، ويجدون فيها ملاذًا آمنا كلما قست عليهم الحقيقة الخارجية أو خذلتهم.

ومنذ ذلك الحين، ينمو تأكيد الذات على مستوى الشعور، وكذلك على مستوى الفعل، ولكن في ظروف أخرى مغايرة، إذ لا يعانى في الواقع من أى قسر قد يفرضه الاتصال بالآخرين، ولا من قاعدة إلا هوى الفرد نفسة. ويبنى خيال المراهق المتأجج شخصيته من خلال الشخص الذى يود أن يكونه ويضفى عليه جمالا، ويقوم ما يشبه الجفرة بين الحياة الحقيقية والرؤيا الخيالية التى تزوده بها

---

(١) وهذا ما درسته تفصيلا في كتاب «أزمة الغرابة عند الشباب» فى الفصول ٤، ٦، ١٠، ١٢ المؤلف.

(٢) فتاة روسية من أسرة من النبلاء نزحت مع أسرتها عقب قيام الثورة إلى فرنسا، وعاشت بها في ترف وفن وحب وآمال وآلام إلى أن ماتت ولم تبلغ بعد الثامنة عشرة من عمرها.

أحلام اليقظة، ويصير بذلك الاتفاق عسيرًا بين الأنا العاملة والأنا الحالمة التى تنشأ عن الإثارة الخيالية بالإحساس بالذات.

حب الذات: ونجد هذين المظهرين الأساسيين لتأكيد الشاب لذاته في الكرامة أو «حب الذات» الذى يبلغ في المراهقة حدًا لا يعرفه فى أى مرحلة أخرى. ويرتد هذا الحب إلى الفرد نفسه، ويظهر في أول الأمر في صورة انتباه للجسد والزينة والسرور عند الوقوف أمام المرآة، وهذا ما قد يتحول إلى تأمل الذات وحب الفرد لصورته، أى ما يسمى بالنرجسية وترتبط بانتشار الإثارة الجنسية، كما يرى علماء التحليل النفسى، ومن هنا يكثر ظهورها عند الفتيات. ويعتقد بعض علماء الأخلاق أن فيها اضطرابا قد يؤدى إلى تعقيم النمو الأخلاقى. فإذا ما لاحظنا مدى شيوع هذه النرجسيه وعدم زوالها بسرعة، كان علينا أن نتساءل هل تصبح هذه الظاهرة - وهى طبيعية في تكوين الشخصية خطأ أو مرضا إذا ما طال بها المقام. وترى هذه النرجسية أيضا على المستوى النفسى، في حب الشخص الذى يتقمصه المراهق، ويصاحبها إحساس بالزهو يتولد عن الشعور المتزايد بالقيمة التى ينسبها المراهق لنفسه. ويتضاعف هذا الزهو عند ذوى الطباع المنطوية عندما يزيد البعد بين الحياة الاجتماعية والحياة الداخلية. ولما كان من الصعب على المراهق أن يبرز، فهو ينصرف عن طيب خاطر إلى التعالى.

ولا يقتصر حب الذات في الحالات الطبيعية على تأمل الذات، بل يؤدى عند الاتصال بالآخرين إلى رغبة جامحة في التنافس، في المسابقات الرياضية، ويمتزج بالميل للفوز فيها الرغبة في التفوق على نفسه وكذلك في التفوق على الآخرين. ويزيد الاهتمام برأى الآخرين، وبخاصة عند الفتاة، ويؤدى هذا إلى نوع من الغرور وكذلك إلى اتجاه للمبالغة. وهذه هى النتائج المألوفة لتأكيد الذات. وتزيد الأهمية التى يعلقها الشباب على اعتدادهم بنفسهم وعلى سمعتهم عند الآخرين. ولا يخلو هذا الغرور من النتائج الخطيرة، ولكن علينا ألا نقلق لما نعتبره عيبا من عيوب هذه المرحلة وانعكاسا لطبيعتهم التى تميل للمبالغة في كل شىء، ومع ذلك فالثقة بالنفس ضرورية للشباب.

الشخصية الشابة: حاولت أن أستعرض كيف يظهر تأكيد الذات خلال المراهقة وكيف يسيطر على قيام الشخصية ويدعمه. ولا ينشأ تأكيد الذات هذا - كما يرى البعض - من ضعف المؤسسات وتهاون الأخلاق أو من الإفاضة في التربية المتحررة. ولا شك أن بأشكاله الحالية يتفق وعصرنا وحالتنا الاجتماعية، ولكنه يوجد في كل الأزمان ويعبر بطريقة مستمرة عن نمو القوى الجسمية والفعلية للفرد أثناء الفترة الأخيرة من نموه، وكذلك عن رد فعل الرغبة في التسلط إزاء الإحساس النقصى تجاه الشخص البالغ، ويستمر أيضا خلال هذه الفترة. وليست الشخصية الشابة إلا أول اختبار يجتازه الأنا التى يلهبها الخيال عند اتصالها بأوساط أكثر اتساعا، وتتفتح بالضرورة أمام المراهق.

وعندما يقترب من النضوج، يسير تكوين الشخصية في طريقه الصحيح، وتعود إمكانية التكيف بالوسط المحيط، هذا التكيف الذى اضطرب مع البلوغ حتى بدا وكأنما لن تقوم له قائمة فيما بعد، وتختفى الاختلافات العضوية والنفسية التى كان تعوق تقدمه. ومع ذلك لا يحسن بنا أن نتعجل قيام هذا التكيف، إذ إن على الشباب أن يتكيف بحاضره أقل من تكيفه بمستقبله، وأن يتكيف «بشدة» - إذا صح هذا التعبير.

ولعلنا نلم بمدى التقدم عندما نقارن بين شخصية في سن العشرين وما كانت عليه في أول البلوغ، فإن الاهتمامات الجديدة التى اكتشفت والتجارب الشخصية الأولى التى تحققت فعلا والمشكلات الكبرى للحياة التى - إن لم تكن قد حلت إلا أنها قد وجهت على الأقل - كل هذا يجعل الشخصية تمر من حالة البلبلة إلى الشكل المحدد، إلا بالنسبة للذين يبالغون في إطالة حياة الطفولة المدللة، فيتعرضون بذلك لتحقيق تكيف أعوج بعد أن تأخر توقيته كثيرًا. ومنذ هذه اللحظة، تجد الشخصية تعبيرًا واقعًا لها عند بعض الفنانين، أما بالنسبة للفتاة، فيمكن الجزم بأنه قد تم لها اكتساب شخصيتها.

ولا تستمر كل عناصر الشخصية الشابة هذه، بل تختفى بعض معالمها إزاء ضرورة الاختيار بينها، ولهذا يقال إن المراهقة أكثر ثراء من سن النضوج. ولكن

الأسس نفسها لا تتغير، ويبقى فقط التكملة الاجتماعية للبناء، وهذه هى الإضافة التى يحلى بها السن الشخصية. وهذه العناصر التى تأتى متأخرة تتضح أكثر، وتكون بذلك مدعاة للوهم والخطأ، كما أنها تكون أكثر ضعفًا وأقل تميزًا.

الثائرون والمستقيمون: ولكن ما الأشكال التى تأخذها حركة تأكيد الذات تبعًا للأفراد؟ ولهذا السؤال أهمية كبرى، إذ يبدو -لاختلاف ما يحدث عن الطفولة- أن النمو يأخذ طرقا مختلفا تبعًا لأنماط محددة، وهكذا يتحقق اكتساب الشخصية بأسلوبين مختلفين اقترح تسميتهما: بالثورية والاستقامة.

ويتم الأسلوب الأول، «الثورية»، في تباه وبطريقة تمثيلية، إذ يؤدى الانفصام النفسى إلى ثورة مؤقتة، وميل للجديد، والرغبة في التميز إلى سعى وراء الغرابة في الثياب والكلام. وهكذا ينتج عن اكتشاف الذات حركة ظاهرة من الذاتية والنرجسيه. ثم تهدأ أزمة «الغرابة» هذه، التى تظهر في الأفعال والحركات اليومية، وكذلك في الأفكار والمشاعر، عند نهاية المراهقة. ولكن يبدو أنها ترتبط بإيقاع النمو، وينجم عنها هزات مفاجئة تتسبب في أحداث قليلة الأهمية. والنمط الثورى شائع عند فنانى المستقبل وقادته.

أما بالنسبة للأسلوب الثانى، «الاستقامة»، فيتم تأكيد الذات دون أحداث هامة، وتمر فترة عدم التكيف دون نتائج، ولا يزيد عمق التعارض بين الطفولة وسن النضوج، بل يكاد يحس المراهق بالتغير والتقدم مستمرين فيه. ويتفق التفكير والاهتمامات الجديدة، ويكون الخيال هنا أقل جموحًا منه في النمط الأول، ويظل النشاط على مرونته ومطابقته للواقع، دون أن يمس الحماس المؤقت أعماق النفس. ويتحول هؤلاء «المستقيمون» إلى أناس إيجابيين ورجال أعمال.

الفشل في تأكيد الذات: وللأسف لا يتم تأكيد الذات دائمًا بطريقة طبيعية، فإن الاضطرابات التى تعترى الشخصية المراهقة تعادل في عددها اضطرابات وجدان المراهق، ويقول رانك O. Rank عالم التحليل النفسى أن الخوف من هذا التأكيد هو السبب الرئيسى لكل الاضطرابات النفسية.

وتدل الملاحظة البسيطة لأول وهلة أن لكل من النمطين المعتادين لتكوين

الشخصية صورة مشوهة: فإلى جانب المستقيمين، نجد «الحائرين» الذين يكتفون بعكس وسطهم فقط، فلا تكون لهم على الإنطلاق شخصية محددة، وإلى جانب الثائرين، نجد «الثائرين جدًا» الذين لا يمكنهم التكيف، بل يستمرون على عنادهم وغرابتهم بأشكالها المختلفة حتى تلقى بهم أخيرًا بين غير المستقرين والفاشلين. ويوجد كذلك أنواع من النكوص والتبيت كتلك التى تحدثنا عنها في معرض حديثنا عن الوجدان في مجال الشخصية: وهذه هى حالة الذين لا يمكنهم اختيار مهنة خوفا من المسئولية ولرغبتهم الدفينة في الحفاظ على رعاية الأسرة لهم، أو الذين يقومون بالتمرين على عدة أعمال دون أن يصلوا إلى الاستقرار فى أى منها. وتزيد خطورة هذه الاضطرابات أحيانًا لدرجة تدفع بالمراهق إلى الانتحار، وغالبًا ما تكون مصحوبة بالوسوسة وتسلط الفكرة الواحدة والعادات السيئة التى يتميز بها العدد الكبير من الأمراض النفسية.

وعدا هذه الأنواع الجزئية من فشل تأكيد الذات، توجد أمراض عقلية أكثر خطورة، منها «البرانويا» التى تظهر في صورة زيادة كبيرة في الإحساس بالذات يستحيل معها الاستمرار في الحياة الاجتماعية، ومع أنها قلما تظهر قبل سن النضوج، إلا أنها تبدأ عادة في المراهقة في صورة ضياع للصلة بالواقع لا يسهل تمييزه في أول الأمر أثناء أزمة الغرابة التى يمر بها الشباب. والمرض الثانى هو «الهستريا»، وهو أقل انتشارًا مما كان يعتقد أطباء النفس في نهاية القرن الماضى، ولكنه يكثر بين الشبات اللائى يملن للظهور واستعراض أنفسهن والتمثيل وتقليد الأشخاص حتى يسقطن، ولو إلى النصف، فى الوهم الذى خلقنه لأنفسهن.

وأكثر الأمراض خطورة هو «العته المبكر» في صورة فصام نفسى، وفيه يتحول النشاط النفسى عن الواقع وتستبدل ألوان الغرابة في الشخصية بانطواء تشنجى، ثم بلا مبالاة تزداد عمقًا إزاء الوسط المحيط، ويسمى هذا الاتجاه «بالانطوائية **autisme**»، فيقضى المريض وقته في تقليب أفكار غامضة لا تنتهى. ويتقلص الفكر ثم يتحل، ومن هنا جاءت تسمية «الشيزوفرانيا» التى تطلق اليوم على هذا الجنون المتزايد.

الأنماط الخلقية: وقد استمرت دراسة اضطرابات الشخصية كنقطة بداية كمجموعة من الدراسات تهدف إلى تصنيف أنماط الخلق السوى. فهناك من الأصحاء من يشبه سلوكهم سلوك المصابين بالشيزوفرانيا، وهم يكونون «مجموعة المنفصمين»، وهناك على العكس آخرون يميلون إلى الانبساط والاستمالة السهلة من وسطهم لهم، وتذكرنا طباعهم بالجنون الدورى لدى المصابين «بالذهان الدوى» وخير مثل لهذين النمطين هما دون كيشوت وسانشو بانسا[1]. ويوجد أيضًا نمط «صرعى»، ونمط «هسترى» ونمط «برانوى»، ويمكن أيضًا استعمال هذا التصنيف الذى يقوم على الفصل بين أقسام كبيرة في الأمراض النفسية - للتمييز بين أنماط الخلق عند المراهقين. وله فائدة أخرى: إذ يلاحظ في دراسة النمو أن الطفل المتفتح العاطفى التلقائى يقترب من الجنون الدورى، بينما يذكرنا المراهق الذى ساء تكيفه وزاد انطواؤه، بالجنون الفصامى، ويمكننا أيضًا أن نتساءل إذا ما كانت الأبحاث الحالية في علم الخلق لن تزيدنا إيضاحًا عما يمكن تسميته «بدراسة نمو الخلق **La Caracterogenie**».

تكوين الخلق: كيف يمكن الإفادة من حركة تأكيد الشخصية إلى أقصى حد، لعمل منهج من التربية الحديثة للمراهقين من الجنسين؟ وهذا يردنا إلى مشكلة «تكوين الخلق» التى يجمع الكل في الوقت الحاضر على أهميتها الكبيرة بالنسبة للأمة في مجموعها.

ولا يمكن للتربية الكاملة أن تقنع بتكوين العقل، بل يجب عليها أيضًا أن تهيئ الفرصة لتطور الشخصية، بما في ذلك الثقة اللازمة بالنفس وبالحياة، وحب الحركة والمسئولية، وفرحة التغلب على صعوبة ما بعد جهد عنيف. ومجمل القول، أنه يجب الاعتماد على تأكيد الذات لتدريب الإرادة مع مراعاة شرطين ضرورين وهما: السماح للشخصية الشابة بالتعبير عن نفسها بطريقة «حقيقية» لحمايتها من شطحات الخيال الفياض، وتوجيهها نحو النشاطات الجماعية» وهى نفس نشاطات سن النضوج حتى يمكن وقايتها من أخطار الفردية الجامحة.

---

(١) بطلا قصة الكاتب الأسبانى الكبير ميجل سرفانت.

ويمكن مواجهة تكوين الخلق بطرق ثلاث، أولا في «الأوساط التربوية التقليدية «كالأسرة والمدرسة، ثم في «الجماعات الشابة» وهى التى يطلق عليها حاليا اسم «حركات الشباب»، وأخيرًا في «الوسط الاجتماعى البالغ».

ويجب أن يتركز جهد البيت في مباشرة الانتقال الشاق من حياة الوصاية إلى حياة الاستقلال. ولذلك يجب أن نوفر للشباب إمكانية حياة أقل تبعية وأكثر استقلالا بأن نكرس لهم ركنًا أو حجرة خاصة، كلما أمكن ذلك. ويمكننا أيضا أن نعطيهم بعض النقود كمصروف مع ملاحظة كيفية استعمالها بطريقة خفية، وكذلك، أن نشجع فيهم الإقدام حتى ولو للقيام برحلة خلوية تحت إشراف مرافق يحبونه ويثقون به.

وتتميز المدرسة بقيامها كجماعة تفوق الأسرة في عددها، ويلتقى فيها المراهق، كما في الشارع، بأخلاق متباينة، ولكنها تعتبر وسطا أقل طبيعية، فيه تختلف ظروف الحياة حتما عن ظروفها في الحياة العادية، وفيه أيضا تقوم محاولات فتحها أمام التأثيرات الخارجية. ومع ذلك عليها -وهى تستطيع ذلك- أن تسهم جديا في تكوين الشخصية مؤيدة في ذلك من الأسرة نفسها، وألا تكدس التلاميذ في الفصول، وأن تجد كل دفعة مدرسا محبوبا من تلاميذه الكبار، يبذل لتحقيق ذلك كل جهده.

ويمكننا أن نحصل - مع الحالة الراهنة لنظامنا التربوى - على نتائج طيبة إذا ما أشركنا الشباب في حياة مدرستهم، وإذا ما عهد إليهم ببعض الخدمات الجماعية، وإذا ما ترك لهم جزء كبير من مسئولية إدارة جماعتهم الرياضية أو الموسيقية أو التمثيلية، وأخيرًا إذا عممنا استعمال العمل المدرسى في جماعات حتى يمكن أن نتلافى آثار التعليم الفردى. وسنربح الكثير من إعادة تنظيم مدارسنا لتصير مؤسسات تربوية حقيقية، وهناك العديد من المدارس التى تتميز بمبانيها العائلية، و«قادتها» الذين

يختارون من بين التلاميذ ويتدخلون فى النظام وفى كل نشاطات المدرسة ويمكننا أيضًا أن نستحدث إصلاحا عميقا في التكوين المدرسى تحقق به المدرسة إذا ما غيرت من خصائصها إعدادًا أكثر مباشرة للشباب يواجه به الحياة، ويترتب على هذا تغيرات كبيرة في عاداتنا حتى إنه يحسن بنا في الوقت الحاضر أن نكتفى بإمكانياتنا الحالية.

ولا يبدو أن المدرسة وحدها تستطيع أن تهيئ إعدادًا كافيًا للخلق، ولكن لحسن الحظ، تؤازرها فيه حركات الشباب.

وترتبط هذه الحركات بحاجة الشباب إلى التجمع فى جماعات صغيرة. و «الجماعة» المراهقة استمرار لجماعة الأطفال التى ترى فيما بين العاشرة والثالثة عشرة، ولكنها تتميز عنها بالرغبة في صداقة أكثر عمقًا وحياة جماعية تقوم على تشابه في الميول والآمال. وقد لا يكون لها دائمًا هدفا مشرفا، فإن المدن الكبرى خاصة تعرف جماعات المنحرفين التى يؤدى بهم نشاطهم إلى المحكمة. ولكن هناك جماعات أخرى تلقائية.

والكشفية هى أكثر حركات الشباب أهمية ونظامًا في الوقت الحاضر منذ تعمق مؤسسها بادن باول **Baden Powell** آمال الشباب وعرف كيف يفيد من إمكانياتهم المذهلة. ويتجمع الكشافة في «دوريات» لكل منها شاراتها وشعارها ونشيدها وكلمات سر خاصة بها، ويعيشون فى الهواء الطلق في حياة جماعية تقوى صحتهم وتعلمهم حب الإقدام والمسئولية، وتنمى فيهم روح التعاون والرحمة وغريزة الشرف والواجب وفى نفس الوقت تهذب فيهم انفعالات الطاقة الجنسية الوليدة. ولكن لا يتوفر للدورية نفس الاهتمام عندما تقترب المراهقة من نهايتها، فيحاول تنظيم «الجوالة» التكيف بهذه المرحلة الجديدة من النمو التى تبدأ وتأخذ فيها الحياة الفردية مكانة أكبر.

وعلى فرض أن حركات الشباب قد عممت، وأنها قد امتدت واستحدث فيها من التغيزات ما يناسب الفتيات أيضًا، يبقى لنا أمر هام يجب أن نفعله أو

بالأحرى خطر يجب أن نحتاط منه. فمهما كان نفع جماعات الشباب، لا يجب أن تكون عالما مغلقا ومهربا من حياة البالغين، وهذا ما قد يحدث، وقد انتبهت إليه منظمة جادندبوجانج **Judendbewegung** في العشرنيات من هذا القرن، إذ يجب أن نهيئ الفرصة داخل حركات الشباب، لإدماج الشباب في عالم البالغين ويكرس قادة الحركة الكشفية، وهم من البالغين، أنفسهم لهذا الغرض، ولكنهم لن يقوموا بهذا العمل على الوجه الأكمل إذا لم يساعدهم فيه الجسم الاجتماعى كله.

ومن الممكن -وهذا ما نرجوه- أن نعهد للمراهقين بأعمال تشركهم في الحياة الجماعية للأمة، وبخاصة في مجال الخدمة الاجتماعية التى تحتاج دائمًا لبذل الجهد. ولا يجب أن تقتصر مراكز التدريب على المجال المهنى، بل يجب اعتبارها كمراكز تربوية يتمرن فيها العمال من الشباب على الحياة. وكذلك يجب أن تكون الخدمة العسكرية أيضًا فرصة لإسهام الشباب كله في أعمال ذات نفع عام، فتكون لهم بمثابة أول عمل شخصى وجماعى يقومون به، ويمكن شخصيتهم من الثبات والرسوخ.

ومن أجل صالح المراهقة والبلد، يجب أن يتمكن الشباب بكل مستوياته، وفى الأسرة والمدرسة، وفي حركات الشباب، وفي المدينة، من التمرس على العمل المستقل الخلاق، وبذلك يتسنى للشخصية التى تفتحت وتحددت معالمها أيضًا أن تعطى ثمارها.

٢- ظهور التفكير الشخصى:

ذكاء المراهقين: إذا ما وجهت بغتة بالسؤال التالى: هل المراهق أكثر ذكاء من الطفل؟ فإنك تكاد ترد عليه بالإيجاب، ولكن مع التفكير يعتريك بعض الشك.

وتزيد المعرفة في الواقع فيما بين الثانية عشرة والعشرين، سواء كانت بالدراسة حبا في النجاح في الامتحانات، أو بتعلم مهنة ما، ولكن هل يستمر نمو الذكاء حتى يأتى سن النضوج، مثله في ذلك مثل الهيكل العظمى – ونصف

بالذكاء القدرة على الاستعانة بالتفكير فى حل مشكلة جديدة، وتكييف النشاط لظروف جديدة؟ أم هل يظهر الذكاء وينتظم خلال الطفولة؟

وتكاد تقف نتائج علم النفس المعاصر إلى جانب الذين يقترحون أن الذكاء قلما ينمو بعد البلوغ، ولعلك تعرف أن «الاختبارات» قد سمحت بتحديد المستوى العقلى للطفل سنة بسنة، وإقامة ما أسماه بينه Binet «بمقياس الذكاء»، فإذا بالنمو العقلى الذى تقيسه هذه الاختبارات يتناقص عند سن البلوغ، ويقل تقدمه بعد سن الرابعة عشرة حتى يصل إلى سن النضوج، وهنا يصبح المنحنى الإحصائى أفقيًا، بل كان بينيه يعتقد أيضًا أن عامل المصنع قلما يتخطى في المتوسط العمر العقلى لسن الثانية عشرة.

وقد أثبتت الملاحظة بدورها أن الذكاء يحتفظ بمستواه خلال نمو الفرد بمعنى أن للطفل الموهوب فرصة كبيرة - إذا كان يتمتع بصحة جيدة- في أن يصير مراهقا ثم رجلا ذا ذكاء يفوق المتوسط. وإنى أكاد أسمع اعتراضك، فتقول: ألا تظهر صحوات متأخرة في الذكاء؟ والجواب: بلى، وبخاصة إذا اعتلت صحة الطفل ثم تحسنت عند البلوغ فإن ذكاء الطفل الذى خبا فترة طويلة ينتفض فجأة حتى يمكنه تعويض الوقت الضائع. ولكن هذه حالات نادرة، ولو أن الاعتقاد سائد بكثرتها إذ إن الأطباء كثيرًا ما يلتقون بها لأننا لا نستشير الطبيب إلا عند المرض، وهكذا علينا ألا نأخذ الاستثناء كقاعدة.

وتميل الاختبارات إلى تأكيد ثبوت الذكاء أثناء النمو عند الطفل على الأقل، إذ غالبًا ما تبقى نسبة الذكاء - أى العلاقة بين العمر العقلى والعمر الحقيقى أو الزمنى - ثابتة عند نفس التلميذ بينما تميل إلى التناقص مع السن عند الفتيات. وتتمثل هذه النسبة فى..١ إذا كانت مساوية للواحد الصحيح، وتتراوح بين ٥٠، ٨٠ عند المتأخرين عقليًا، وبين ١١٠، ١٤٠ عند الموهوبين. وعلينا مراعاة أن لتقدم النمو العقلى أو لتأخره أهمية أساسية في علم الشباب، فإذا افترضنا وجود طفل بلغ وهو في سن الثانية عشرة مثلا العمر العقلى لسن الرابعة عشرة، أى بنسبة

ذكاء ١١٦، نجد أيضًا أنه يملك معظم السمات النفسية الخاصة بالسنة الرابعة عشرة من الحياة، وهكذا يصل الأطفال الموهوبون إلى تفكير المراهقة قبل البلوغ، بينما يظهر على المتأخرين الذين تقل نسبة ذكائهم عن ٧٠ مثلا، آثار الطفولة النفسية حتى ولو كانوا من البالغين.

ويبدو أن السنوات الحاسمة من الناحية العقلية، تقع بين التاسعة والثانية عشرة، وقد أثبتت أبحاث بياجيه **Piaget** أن التفكير فى هذه اللحظة يتخلص من خاصية مركزية الذات، أى أنه يقلع عن التفسيرات الساذجة، ويصير قادرًا على تفهم مبدأ السببية بين الظاهرات وعلى التفكير بطريقة منطقية. وهكذا يصل إلى مرحلة التفكير الاجتماعى النقدى. ويبدو أن الارتباط بين ظهور التفكير المنطقى الذى يقترب من تفكير الشخص البالغ واللحظة التى يأخذ فيها النمو العقلى الذى يقاس بالاختبارات فى الإبطاء، حجة جديدة للقضية القائلة يتوقف كل تقدم حقيقى فى الذكاء بعد انتهاء مرحلة الطفولة.

وقد نتساءل إذا ما كان الذكاء لا يتناقص أثناء المراهقة بسبب انتفاضة العاطفة وظهور الغريزة الجنسية، فإن عقل طفل في الحادية عشرة من عمره، وهو عملى، موضوعى، متكيف تماما بالعالم الخارجى يبدو أكثر قربًا من عقل البالغ عن عقل المراهق، فهو خيالى، محمل بالخيالات وأقل اهتمامًا بما يحيط به، بينما يزيد اهتمامه بانفعالاته الخاصة.

ولكن علينا مع ذلك ألا نتسرع الحكم، فكل هذه الحجج تقبل إلى حد ما الجدل.

ويظهر تطبيق الاختبارات فى الواقع نموا محسوسًا حتى سن الرابعة عشرة، وهى السن التى تبدأ فيها المراهقة وبخاصة عند الفتيات، ويسمح لنا هذا التطبيق كذلك بملاحظة أن للتقدم مع إبطائه، يبقى ملموسًا حتى حوالى سن الثامنة عشرة، وأحيانا لما بعدها. وهكذا لا يجب ألا نخضع لنظرية بينيه عن سن الرابعة عشرة، وكذلك عن سن الثانية عشرة بحذافيرها، فإن تغيير العقلية الطفلية أثناء الطفولة الثالثة لا يتم في طفولة مفاجئة، بل يبدأ منذ سن الحادية عشرة أو

الثانية عشرة ظهور التفكير المجرد، ويتأخر التفكير المتركز في الذات. وتدل التجربة أن كثيرًا من المراهقين الذين أحسن اختيارهم، ليسوا بعد قادرين على التفكير الدقيق.

ويزيد الحديث عن ذبول الذكاء في المراهقة، فإذا كان ذلك نكوصًا، فلن يكون إلا خلال فترة الاضطراب البلوغى، إذ إن حماس الشباب يتناسب على العكس مع تألق الذكاء. ولكن هل هناك على الأقل نكوص وقتى؟ لا، فقد يبدو لنا الفتى غامضًا والفتاة خاملة، ولكنهما ليسا أبلهين. والحقيقة أن «الاهتمامات» العقلية تخلى السبيل للاهتمامات الانفعالية والعاطفية، ولكن «الوظيفة» العقلية ذاتها لا تختفى.

ولنذهب إلى أبعد من ذلك، فإذا سلمنا أن ذكاء الطفل الطبيعى في سن الثانية عشرة، يساوى ذكاء عامل غير متخصص في العشرين أو الثلاثين من عمره، فإننا نسلم بوجود عدم توازن غريب بين النمو الجسمى والنمو العقلى. ويعترض هذا أن ظهور الذكاء يبقى مستقلا عن تطور الوظائف العقلية التى تسهم بالتأكيد في نجاح الذكاء، مثل الإدراك والذاكرة والخيال والتفكير إلخ..

وإذا كان النضج الحسى يبلغ حده الأقصى منذ الطفولة، فإن النشاط الإدراكى الذى يعتمد على عدد كبير من الوظائف النفسية، يتقدم ببطء أكثر أثناء النمو كله، وهذا ما تشهد به المراحل التى فرق بينها سترن في تطور وظيفة الملاحظة، وكذلك وظيفة الذاكرة التى كان يعتقد بتفوقها عند الطفل أكثر منها عند الرجل، فإنها تزيد في الواقع حتى سن الثانية والعشرين أو الخامسة والعشرين مع نمو مفاجئ فيها فيما بين الثالثة عشر والسادسة عشر، طبقًا للتجارب التى أجراها ميمان **Meamann** على الذاكرة المباشرة، وتكون الفتيات حتى سن الرابعة عشرة أكثر استعدادًا من الفتيان للحفظ لمدة أطول، وعلاوة على ذلك، لا تثبت أنماط الذاكرة البصرية والسمعية والحركية قبل نهاية المراهقة، وأخيرًا، لا تظهر ذاكرة العواطف إلا عند البلوغ وقد رأينا أن الخيال بدوره يمر عند المراهقة بتطور كبير.

وهكذا نرى أن الذكاء لا ينمو على الوجه الأكمل في نهاية الطفولة الثالثة، ونحن نتساءل عما إذا كانت نتائج اختبارات النمو التى تبدو مناقضة لهذا الرأى، لا تبرهن فقط إلا على أن هذه الاختبارات التى كانت صالحة في الطفولة، تقل صلاحيتها كثيرًا في المراهقة. وقد تبين أن هذه الاختبارات التى أجريت على الشباب كانت صعبة التفسير كثيرًا، وكذلك قلت نتائجهم فيها. وهكذا يبدو أننا لا نملك في الوقت الحاضر طريقة تجريبية كافية لدراسة ذكاء المراهقين.

ومع ذلك فإننا لا نجهل كل ما يدور في المجال العقلى خلال هذه السنوات، ولكننا سنقتصر على دراسة ثلاث ملاحظات هامة: فمنذ البلوغ يميل الذكاء نوعا ما إلى التخصص تبعا للأفراد فى «استعدادات خاصة»؛ وثانيا، يمر الشبان خاصة «بمرحلة جدلية» تجعل من المراهقة أفضل سن للتفكير، وأخيرًا، يصل المراهق في تلك اللحظة إلى مبدأ رئيسى، هو «مبدأ القانون».

وتضم هذه الظروف الجديدة الخاصة بالمجال العقلى إلى الظروف التى أتينا على دراستها فيما يختص بالعاطفة والخلق تسهم في تكوين الفكر الشخصى عند الشباب.

نمو الاستعدادات [1]: والذكاء العقلى وظيفة كلية كان يجتهد في قياسها إزاء كل «عمل ذكائى»، ولكن قبل البلوغ بقليل، تظهر «الاستعدادات»، وهى كما يقول كلاباريد Claparede الذى اهتم كثيرًا بهذا الموضوع، قدرات طبيعية تميز بين التكوين النفسي لفرد معين وتكوين نفسى آخر، وتجعله قادرًا، عند التماثل في تربية هذه القدرات، على إنتاج أحسن. ويمكن أن نعتبر استعدادات عدة وظائف عامة مثل الحكم والانتباه، أو قدرات خاصة أكثر تعقيدًا مثل الاستعداد للرياضيات أو للرسم. وهذه القدرات الخاصة هى التى تهمنا أكثر إذ يعتمد عليها التوجيه المهنى للمراهقين، ولكنا لا نلم بها مع ذلك تماما، وحتى «مبدأ الاستعداد»

---

(١) توجد دراسة مستفيضة عن الاستعدادات في الفصل الأول من القسم الثانى من كتاب «علم النفس التطبيقى» لمحمد زيدان وحلمى عمر وقد نشرت هذه الترجمة دار الأنجلو المصرية - الطبعة الأولى لعام ١٩٦٥.

نفسه هو موضع جدل فى أيامنا هذه، ويميل بعض الكتاب لاستبداله بمبدأ «القدرة على التكيف».

ولكن هناك اتفاق على الاعتراف بثبوت هذه الاستعدادات سريعًا منذ لحظة البلوغ، ويظهر بعضها مبكرًا، ويسبقها كلها الاستعداد الموسيقى ولو أنه لا يتأكد إلا ابتداءً من سن العاشرة، باستثناء الموهوبين. وبعد سنه، يظهر الاستعداد الميكانيكى الذى تعبر عنه القدرة التكنيكية. ثم يأتى الاستعداد للرسم. ويقل تأكدنا من الاستعدادات الأخرى التى يتضح وجودها بعد ذلك، وهى الاستعداد للرياضيات في حوالى سن الرابعة عشرة، ثم الاستعداد الأدبى، وأخيرًا الاستعداد العلمى الذى لا يظهر قبل السادسة أو السابعة عشرة إلا فيما ندر.

وهناك سؤال: هل يظل الاستعداد المبكر على قوته عند البالغ؟ ونتردد عن الرد بالإيجاب، إذ قد لا تكون القدرة التى يطلق عليها استعدادًا إلا تعبيرًا عن اهتمام مؤقت يزول بظهور اهتمام آخر، فقد يهتم أحدهم في سن الثانية عشرة بالميكانيكيات ثم يكتب الشعر في الخامسة عشرة، ولكن ليس من الضرورى أن يصير مهندسًا أو شاعرًا. ويلاحظ كذلك أن لدى التلميذ الذكى شبكة من الاستعدادات، ولكننا لا نستطيع التنبؤ بتلك التى ستستولى عليه فيما بعد.

ويستعان بالاختبارات لقياس الاستعدادات، وكذلك لدراسة النمو العقلي ولكننا نهتم هنا بترتيب الأشخاص تبعًا لقدرة معينة، وأملنا كبير في التوصل إلى مجموعة من الاختبارات تعطى نتائجها عن الاستعداد المدروس خطأ في «الصورة النفسية» لكل مراهق. وتكمن الصعوبة هنا في اختيار الاستعدادات المميزة، ولم يمكننا حتى الآن التغلب على هذه الصعوبة.

وثمة سؤال آخر: هل تستقل هذه الاستعدادات عن بعضها البعض؟ أم أنها ترتبط تماما أو حتى جزئيا؟ وهل يمكن التعبير عن هذا الارتباط بينها بصورة عددية؟ وقد أثار هذا السؤال جدلا طويلا وفي الوقت الحاضر، تتمتع نظرية سبيرمان بتأييد كبير، فقد توصل عالم النفس الإنجليزى بعد دراسة واعية مستفيضة إلى وجود عامل عام (G) وهو وظيفة أو مجموعة من الوظائف

المشتركة في كل المظاهر العقلية، ويظل هذا العامل ثابتًا في كل الاختبارات التى تجرى على نفس الفرد، وعامل خاص (S) ويتغير من استعداد الآخر. عند نفس الفرد. ويسود العامل العام في أول الأمر. ثم تزيد أهمية. العامل الخاص منذ سن الثانية عشرة. وهذه دعامة جديدة تعتمد عليها فكرة نمو الاستعدادات عند البلوغ، وكشفا محددًا عن حركة الذكاء أثناء المراهقة.

وهكذا، دون أن يغير الذكاء من طبيعته، يتخذ بعد الطفولة شكلا جديدًا بفضل الاستعدادات التى تهئ فرصة التخصص لنشاطه. فمن بين الكثيرين من تلاميذ المدرسة الابتدائية المجدين، يصير أحدهم محاميًا أو مدرسا وقد كان يحب الأفكار ويتمتع بذاكرة طيبة وخيال متيقظ، ويصير الآخر مهندسًا لمهارته اليدوية وبراعته في حل المعادلات الرياضية أو الكيمائية. وهكذا «يتشكل» الذكاء في المراهقة. أليس هذا خير جواب على الذين لا يرون في هذه المرحلة إلا اضطرابًا ذهنيًا خطيرًا؟.

التوجيه المهنى: قام التوجيه المهنى لضرورة مساعدة الشباب على إيجاد مهنة تتفق واستعداداتهم الحقيقية، وهو يهم خاصة هؤلاء الذين يحتاجون منذ وقت مبكر لاختيار عمل - أى قبل أن تتاح الفرصة لاستعداداتهم كى تتكشف بطريقة مؤكدة. ويرجع نجاح التوجيه فى ميدان الحرف اليدوية للاختبارات الحركية الفائقة الدقة أحيانا، ولكن حتى في مثل هذه الحالات، لا تكفى الاختبارات لأنها - كما يرى كلاباريد - تشخيص محتمل لاستعداد، لا تأكيد لوجوده. وهكذا كان على التوجيه المهنى أن يحيط نفسه بضمانات أخرى، خاصة الفحص الطبى والنتائج المدرسية ورغبات الأسرة والمراهق. ولا يجب الخلط بين «ميول» التلميذ واستعداداته، إذ قد يحب في أول الأمر مهنته ليس لديه إلا استعداد ضعيف لها، ومع ذلك يجب الأخذ بهذا العنصر العاطفى لأن الاستعداد بدون ميل طبيعى لا يؤدى إلا إلى إنتاج ضعيف، والشخص الذى لا يحب عمله قد يتجه إلى تغيير مهنته والتعرض لعدم الاستقرار. وكذلك على التوجيه أن يهتم بالذكاء العام للفرد، إذ من حق التلميذ الموهوب ذى نسبة ذكاء مرتفعة أن يطمع في مركز أحسن من ذلك الذى ينتظر التلميذ ضعيف الذكاء. ويدلل «المرشدون

بالتوجيه المهنى» من الأمريكيين على إخلاص جرىء في هذا المجال عندما ينصحون ابن المصرفى أو ابن الموظف الكبير، إذا ما قل ذكاؤه وكان أكثر نجاحًا في الأعمال اليدوية أن يصير طاهيًا أو بستانيًا، ومع ذلك فهم يعلنون عن عدم رضا الأسرة عادة بهذا الرأى، وأخيرًا لا يفوتنا أن نهتم بالتحذيرات الطبية أو النفسية. فإن المصاب بعمى الألوان لا يستطيع أن يصير مهندسًا ناجحًا بالسكة الحديد، كما أن من يكره رؤية الدم لم يجعل ليكون قصابًا (جزارا).

أفكار الشباب وجدله: درسنا نمو الاستعدادات بالنسبة لشباب يستعد للتلمذة المهنية. أما الجدل فيظهر خاصة عند الذين يستكملون دراساتهم.

ويقول مندوس **Mendousse** إن المراهق قد يكون أقل تعقلا من الطفل ولكن بالتأكيد أكثر منه تفكيرًا، فهو يهوى المناقشة منذ سن الرابعة أو الخامسة عشرة، ويقدم على حل المشكلات إقداما جنونيا. فهذه هى السن التى يولع فيها بمشكلة تربيع الدائرة أو الحركة الدائمة، ثم يختار بين الحجج التى كان يستعين بها من قبل مختلطة بعضها ببعض. ويتحسن تفكيره المنطقى معتمدًا في ذلك على العادات التى اكتسبها في الفصل. ونحن نعلم جيدًا المكان الذى تشغله المناقشات الأخلاقية والسياسية والدينية بين التلاميذ الذين يدرسون الفلسفة.

ويرتبط تقدم التفكير بالكشف عن الأفكار العامة، ويحدث هذا في سن الرابعة عشرة، ثم بالكشف عن العلاقات المنطقية التى تجمع بين هذه الأفكار، وكذلك بإمكانية الانتقال من مجرد التحقق إلى العرض الرياضى ومن الحساب إلى الجبر. وتدل كل هذه الوقائع على زيادة القدرة على التجديد عند التفكير. ويتكون الجدل شيئا فشيئًا. ويصبح لعبة محببة لنفوس الشباب، وتكون للفتيات إمكانيات مماثلة، ولكن يقل ميلهن للجدل، إذ إنهن يفضلن أسلوب المواجهة ووسائل المنطق العاطفى، وتؤدى بهن المرونة العقلية المدهشة إلى استيعاب المعلومات الدراسية.

ويظهر التطرف في عادة التفكير في الفصول الدراسية العالية، ويخفى المراهقون الزعزعة التى تلاحظ عندهم عند استعمال أشكال التفكير المختلفة

والتدليل بالحجج، بنوع من البلاغة الرنانة، وتصبح العبارة عند الشباب أكثر ثراء بالمفردات وأكثر قوة في بنائها عن عبارة الطفل، وتتهيأ بذلك للتعبير عن الأفكار العميقة، ولكنها غالبًا ما تكون كالثوب الفضفاض لأن المفردات تزيد بسرعة لا يستطيع المراهق معها أن يستوعبها. فهو يعتقد أنه يفهم، ولكنه لا يفهم في الواقع إلا النصف وقد يفهم العكس. ويؤدى حب اللعب بالألفاظ المجردة إلى ثرثرة تذكرنا بتلك التى كان يمارسها الطفل في سن الثانية أو الثالثة عندما يحصل على أولى مبادئ اللغة. ويتخذ المراهق لنفسه عادة التفكير بالكلمات التى تفقد كل علاقة لها بالواقع وتصبح فقط مجرد رموز. وهناك مقابل لتقدم القدرة على التحليل، وخاصة التحليل الذاتى، إذ غالبًا ما يلاحظ عند محبى التفكير ميلا للفطنة، وعادة الدقة في التمييز من أمراض الشباب، مثل حب الشباب. وأخيرًا. يكسب الإفراط في التفكير المنطقى، وخاصة في القياس المنطقى، التفكير المراهق شيئا من الجفاف، ويسلك المراهق عن طيب خاطر سبيل العقيدة، وينتشى من الوصول إلى طريقة، لا للمعرفة، بل للبرهنة على أنه على صواب، وكذلك يوجد عند بعض المراهقين نوع من الصلابة في التفكير. وميل متزايد للمقابلة والمناقضة، وبالتالى نوع من التفكير الهوسى المريض يصادف أيضا عند من سيقع منهم مستقبلا في الجنون الفصامى.

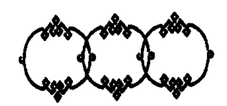
ويعتبر هذا التطرف عادة - ولحسن الحظ- انحرافا في التفكير الشخصى الذى يتفتح، وهذه هى ضريبة الاندفاع في التعلم، ولا يعنى هذا القول أن نعجب بالشباب المجادل، بل يقوم فن المربى على توفير المرونة للأداة التى يستخدمونها. وهذه مهمة صعبة، إذ إن ما يحتاج إليه تفكير الشباب، هو التجربة الكافية التى يحسن توجيهها فالشباب. لا يعرفون كيف يحصلون على التجربة ولا كيف يستخدمونها، ويضللهم في ذلك سلوك الآخرين. ولكن ما أن تلازم التجربة التفكير حتى يدل هذا أخيرًا على قدوم سن النضوج.

الكشف عن مبدأ القانون: وثالث نتيجة للنمو الفكرى هى الوصول إلى مبدأ القانون، وتعد لهذا التقدم الحاسم دراسة الظاهرات الطبيعية أثناء الطفولة الثالثة، إذ يلاحظ الطفل العلاقات القائمة بين الظاهرات، ويتعلم عدة قوانين

طبيعية يتحقق من صحتها بالتجربة. وتضم مراجعة اختبارات بينيه التى قام بها ترمان على اختبار لسن الرابعة عشرة يطلب من الفرد إيجاد قانون بسيط لمجموعة من الأرقام. ولكن إذا كان مبدأ القانون يبدأ مع البلوغ، فهو لا يتحقق في الواقع إلا فى النصف الثانى من المراهقة عندما يسيطر العقل على كل إمكانياته ويستطيع لأول مرة أن يلم بالعالم الخارجى كبناء متماسك مفهوم. ويصير القانون عندئذ تعبيرًا عن العلاقات العامة الضرورية التى تربط بين الظاهرات، وفى هذه اللحظة أيضًا، يكتسب القانون معانيه المختلفة، من علمية وسياسية وأخلاقية ودينية، فلم يعد مجرد جزء من المعرفة، بل يتضمن الجهد الشخصى، وهذه ليست إلا إمكانية لا يبلغها المراهق دائمًا.

العقلية الذاتية: وإذا ما أردت توصيف تفكير المراهق مبتدئا من الوقائع التى ذكرناها حتى الآن، فستجد أنها تبلغ بعد حد التفتح المتسق.

والمبالغة في العاطفة وشحوذ الخيال والميل للتفكير البديهى ونقص التجربة تكسب تفكير المراهق ذاتية ومدرسية في نفس الوقت، فتظل عناصر النشاط فيه غير كاملة التكيف والتسلسل، وهو تفكير غنائي في جوهره، يعانى في مجموعه من المبالغة في الفردية، أى أن المطابقة فيه بين الذات والموضوع لم تكتمل بعد. وللطفل تفكير مماثل، ولكن بينما يتجسد تفكير الطفل في الحدث ويمتزج بالأشياء والكائنات. ينفصل عنها تفكير المراهق، ولكنه لا يصل إلى التحرر من الذات رغم اندفاع الشاب في التفوق على نفسه. ويحتفظ هذا التفكير علاوة على ذلك بشيء يذكرنا باللعب، ويميل للاستعراض، بل ولاستعراض نفسه أيضًا. ولهذه الأسباب يمكننا أن نصفه، إذا ما غيرنا قليلا معنى الكلمة التى استعملها ستندال Stendhal [1] «بالتفكير الذاتى» يقابل في المراهقة ما يسمى في الطفولة بالتفكير «المتركز في الذات» الذى وصفه بياجيه.



(١) كاتب فرنسى في القرن التاسع عشر، اشتهر في كتاباته بتعمقه في تحليل شخصياته.

الفصل الرابع

السعى نحو قيم الحياة

وضعنا فيما مضى سلسلة من الانتفاضات والأشكال المميزة التى يكتسبها الجسم والقلب والأنا والذكاء أثناءها. ولكن ما هدف كل هذه الانتفاضات؟ وماذا يوفر للشخصية التى تتعرض لها قيمتها وعمقها؟ هذا ما سنراه من دراستنا لقيم الحياة التى تدفع الشباب - أو على الأقل الأخيار منهم - نحو الرفعة.

مبدأ القيمة: يسمى «قيمة» في علم النفس كل ما يحقق الإشباع لحاجة من حاجاتنا سواء كان ذلك شىء أو كائن أو حدث أو فكرة. والقيمة ليست إلا إحساسًا بالثمن الذى يقدر لشىء ما، ولذلك كانت القيمة ذاتية، وقد لا تتفق والترجمة الاجتماعية المألوفة للقيمة التجارية لإنتاج أو عمل معينين.

اكتشاف المراهق للقيم: ينشط مبدأ القيمة منذ وقت مبكر جدًا عند الطفل، ولكنه لا ينفصل عن موضوعه ويكون الوجه الآخر للرغبة. وفي حوالى سن الخامسة عشرة، يتسع مجاله وتزداد قوته فجأة، فيصير المراهق أكثر حساسية نحو الثمن الذى يعول عليه من وراء الأفعال والمواقف التى تتفق واهتماماته وأهدافه. وهكذا لم تعد تحية الصباح التى يلقى بها إلى شخص ما مجرد عادة، بل تكتسب قيمة، وكذلك يكون توقيعه باسمه. ولا يرد هذا لمجرد الحركة العاطفية، بل لأفكار ومبادئ يرى المراهق أنها حقيقية، ففى تصور الشباب للعالم، يقوم عالم للقيم إلى جوار عالم المعرفة، ويسهم كثيرًا في تحديد أفكارهم وتنظيم سلوكهم.

ولا حصر لهذه القيم، فهى اقتصادية وسياسية واجتماعية وأخلاقية وجمالية ودينية إلخ.. ولا تكتشف عادة دفعة واحدة، وبالتالى لا تظهر بملامح القيم الكلاسيكية التى تتحدث عنها الفلسفة مثل الحق والجمال والخير: ويراها المراهق في أول الأمر مختلطة، غير محددة، متضاربة فيما بينها، ويعثر عليها من خلال قراءاته في الشخصيات الحقيقية أو الخيالية التى تتمثل فيها هذه القيم،

وهكذا يعتبر رودريج[١] والمشرف العائلى ليسا إلا شيئًا واحدًا، كما يتجسد الفن في شخص مشيل إنجلو، وقد يحدث ألا يتخطى المراهق هذه المرحلة، ولكن لدى من يفكر ويدرس من المراهقين، سرعان ما تتلخص القيم من هذه الشخصيات وتأخذ شكلا مجردًا يصير مبدأ للعمل.

ويمتزج اكتشاف القيم في الواقع باكتشاف الثقافة، إذ تتمثل كل حضارة في جهاز من القيم ينظم حياة الجسم الاجتماعى في وقت معين، وبذلك تكون إحدى المهام التى تلقى على عاتق المدرسة - كما رأينا - نقل هذه الثقافة إلى الشباب لتمكينهم من الاشتراك في حياة الجماعة وتقاليدها. ولكن ليس على الجماعة إلا التمهيد لعمل الفرد، فهو الذى يختار إلى حد ما القيم من بين ما يعرض عليه منها، وتنتظم هذه القيم بداخله بطريقة شعورية أو غير شعورية في تسلسل يعكسه سلوكه، وبداخله أيضًا يتحقق التوافق بين القيم التى يسمح بها المجتمع الذى يعيش فيه المراهق، وتلك التى تعبر عن ميوله الخاصة.

إن ما يثير اهتمام الشباب قبل كل شيء، هو الحياة، حياتهم الخاصة التى يشعرون أنها قد وصلت إلى نقطة حاسمة مثل حياة الآخرين، وكذلك الحياة عامة، فهى تجذبهم وتسحرهم. وفى هذه اللحظة، يصبحون أكثر إحساسًا بالجانب الديناميكى للأشياء، وكذلك بنموهم، ويكتسبون الإحساس بالزمن وبالتغيير، وهذه أفكار يصعب على الطفل فهمها. وفي مقابل هذا، تظهر فكرة الموت وتصير أكثر إلحاحًا، وتبدو لهم الطبيعة ككائن حى يتحدون معه اتحادًا عاطفيًا، وبذلك تكون القيم التى يحبونها هى أيضًا قيم الحياة، وهى القيم التى تستطيع إشراكهم تماما في الديناميكية العامة.

ويعطى كل شاب، حسب طبيعته، المكان الأول لإحدى عائلات يتمناها المراهق لنفسه على جهاز القيم الذي يعمل بداخله والذى يتيح له أن يعد «خطة حياته» فبالنسبة للشاب العملى الذى يهمه النجاح والكسب تتفوق القيم

---

(١) بطل التراجيديا الكلاسيكية المعروفة «السيد» للكاتب الفرنسى الكبير كورنى.

الاقتصادية، بينما تظهر عند الآخرين قيم اجتماعية، وخاصة ذات طابع عائلى، كتلك التى تلاحظ كثيرًا عند الشابات. ويلاحظ أيضًا أنه بمجيء سن النضوج، يزداد الاهتمام كثيرًا بكل ما هو نقص. أما أثناء المراهقة، فإن الاختيار لم يكن قد تم بعد، كما أن الفرد لم يكن قد أحس بعد بإلحاح القيم المادية، وهكذا يكون «مهيأ»، وكذلك قادرًا على «إنكار الذات»، وهذان الشرطان يوضحان المكان المرموق الذى تشغله في ذهنه القيم الروحية، وهى قيم جمالية وأخلاقية وفلسفية ودينية بقدر ما يسمح له وقته بالاهتمام بها.

أولوية القيم الجمالية: إن الشباب - كما يقول رودان[1] هم «خدام في محراب الجمال»، ويقدمون القيم الجمالية على كل شيء، لذا يؤدى حب الجمال -وبخاصة عند بعض الشابات- إلى عبادة حقيقية للجسم أو للفن.

ولا شك أن تفضيل كل ما هو جميل يرتبط بالنمو البيولوجى، وخاصة بانتفاضة الحياة الجنسية، وليس حب التزين والزينة وكل جميل يجذب النظر إلا مكملا لعمل الطبيعة التى تعطى، قرب نهاية المراهقة، للبشرة وللنظرة ولأشكال جسم الفتاة جمالا متجددًا لا يبارى، ولا يسعنا إزاء ذلك إلا التفكير في التفتح الذى يشاهد في عدد كبير من الأنواع الحيوانية عند ظهور النضج الجنسى والذى يمتاز في الطيور بالتغريد واكتساب الريش للألوان الزاهية. وحتى إذا ما استبعدنا هذا التشابه الذى قد يثير الجدل، نجد أن الفن هو أكثر نشاطات الفكر الكبرى اتصالا.

ولا يعشق الجمال فقط في الأجسام والأعمال الفنية والمناظر الطبيعية، بل وفى المجالات التى يلغى منها عادة في سن النضوج، مثلما في مجالات المعرفة والعمل. وهكذا لا يظل الشباب جامدًا أمام الحركة الجميلة أو حتى إزاء العرض الجميل، فالشباب لا يتفهم الأخلاق أو الحقيقة بعيدًا عن الجمال.

---

(١) مثال فرنسى شهير (١٨٤٠-١٩١٧).

وهكذا تبدو أولوية القيم الجمالية مرتبطة بمرحلة من مراحل التطور، وهذا نجد صداه، حتى في الطبائع التى تخلو من الشاعرية والنبل وقد تؤدى -إذا ما بلغت حد التطرف- إلى خلق عقلية تحب الفن وتعجب بكل ما هو جميل. ولكن ما أن يستند هذا الإحساس بالجمال استعداد حقيقى حتى تزدهر أعمال الشباب التى تتيح للفنان -ولو أنها لا تبلغ مستوى التحفة الفنية من النضج- فرحة الكشف عن موضوعات أساسية لإلهامه من خلال التألق المثالى لذاته.

المثالية الأخلاقية: أود، وأنا أتقدم من مجال القيم الأخلاقية، أن أقضى أولا على وهم شائع: فإن السعى إلى هذه القيم لا يعنى أن للشباب سلوكا يصلح كقدوة، بل يعنى أنهم يصبحون فقط أكثر إحساسًا بالرغبة في الخير. ومع قدرتهم منذ الآن على إقامة حياة أخلاقية شخصية، فإنهم يقدرون أيضًا على الفساد والفجور. وقليلا ما نتحدث عن الجريمة عند الأطفال، بينما توجد الجريمة بين المراهقين، ومن دراسة برت G, Burt وهيلى W. Healy لصغار المنحرفين من الشباب، يبدو لنا صعوبة مراسهم، فكلما زادت القوة الفردية، زاد انتزاعها لعادات الطفولة الواحدة بعد الأخرى، وتتمكن الاتجاهات الشريرة من الظهور، وتجد منفذًا لها في «الفساد» الذى يسمى «بالجنون الخلقى» وفيه يفعل الشخص الشر لما يحس به عندئذ من سرور. ودون أن نبلغ حد المرض النفسى، كم من مرات دهشنا فيها من سلوك الشباب بما فيه من أنانية وخشونة ووقاحة حقيقية أو مصطنعة وحب ارتياد الأوساط المشبوهة!.

وهذا هو الجانب السيئ، ولكنه لا يجب أن يخفى عن أعيننا الإمكانيات الأخلاقية المحددة التى تحملها المراهقة، فإن الحياة الأخلاقية للطفل لم تكن إلا انعكاسًا لتأثير الوسط الأسرى والمدرسى على سلوكه. ولكن بعد البلوغ، لا يكتفى الفرد الذى يتطلع إلى العالم والكائنات بمنظار جديد، «بالعادات الطيبة» التى

كانت تثبت فيه، إذ تبدو له قليلة الشأن ناقصة إذا ما قيست برغبته في الكمال والمطلق، لذلك تعرض كل صعوبة يلتقى بها لنوع من الافتتان، فهو يهوى المجد والخلود، ويحس في الرغبة في التفوق على نفسه، ولا تفلت القيم الأخلاقية من نفس هذا القانون الذى تخضع له حياة المراهق الفكرية، فيتجه بغريزته إلى أكثر هذه القيم سموًا حتى تكاد الأخلاق أن تصبح في نظره نوعا من الرياضة التى تتيح له فرصة الشعور بالقوة والإرادة. ويتفق كل من المثال الجمالى والمثال الأخلاقى عند الشباب، وهو ملح ومنظم، غير وثيق التماسك دائمًا، ولكنه ليس أقل ما يثير فينا الدهشة في سن يفيض بالمفاجآت. وفى المراهقة، تبدو الأخلاق كارتباط كامل لا كمجموعة من المبادئ. والواجب كحقيقة مادية لا كتجريد فلسفى. وليست الأخلاق خضوعا لأى من الإخلاقيات الاجتماعية، بل هى محاولة لرفعة الفرد كله ولا يقبل الشباب على الحكمة التى يرونها غير ذات بال ولا تجدر إلا بالشيوخ: كما أنهم يحلمون مثل إيمرسون[1]، في ربط عجلة حياتهم بالنجوم، وما أشقى وأتعس المربى الذى يتغاضى عن الإفادة من هذه الطاقة عند الشباب!.

وتمتاز قيم الحياة الأخلاقية عند الشباب، أى فضائله، عن قيم البالغين حتى ولو كانت تحمل نفس أسمائها، فيرى الشباب في التضامن إخلاصًا، وفى الطيبة إشفاقًا، وفى الرحمة التى كانت يصعب على الطفل ممارستها نوعًا من الخلق البطولى. وهناك قيم يفضلها المراهقون عادة: مثل الشرف وهو الطرف البراق للعزة الشخصية، والإخلاص العميق، والشجاعة التى تبلغ حد التضحية من أجل قضية يخدمونها، وكل هذه ميزات تهيئ السبيل -كما نرى- لتفتح الإمكانيات الفردية وازدهارها.

القيم الميتافيزيقية والدينية: وإلى جانب المثال الأخلاقى، تكتشف المراهقة القيم الميتافيزيقية التى غالبًا ما تكون مختلطة به، وتتقمصها، فيولع الطلبة الشبان بمناهج الفكر التى تحاول إيجاد تفسير معقول للكون وكذلك جواب لكل

---

(١) فيلسوف أمريكى في القرن التاسع عشر.

المشكلات التى يقيمها القدر الإنسانى. ويتفق هذا السعى مع حاجتهم الملحة إلى سبر غور الأشياء بما يتجاوز مجرد التجربة المحسوسة، وذلك بفضل القوة غير المحدودة التى ينسبونها للعقل. ونحن نعرف أن أوجست لوكونت كان يجعل من المراهقة، في قانونه عن الحالات الثلاث. سن الميتافيزيقا. ولا شك أن قلة هم الذين يستسلمون للتأمل في السببية والحتمية والمادة أو السبب الأول. ولا يقوى جميع المراهقين هزة الميتافيزيقا إذا ما واجهو سرًا من الأسرار، ولكن عددًا كبيرًا منهم يحسون أمام مشكلات الكون وإزاء حياتهم الخاصة بذلك «القلق» الذى يعتبر طريقًا آخرًا مؤديًا إلى الميتافيزيقا.

ومن العسير أن نفضل تمامًا، في تفكير المراهق، بين مجال الميتافيزيقا والمجال الدينى الذى تتجمع فيه كل القيم الروحية.

ويبدو أن علماء النفس قد اتفقوا على اعتبار أزمة البلوغ كانتفاضة مفاجئة للشعور الدينى، إذ يلاحظ الاتجاه للتدين حتى عند الأفراد الذين كانوا فيما مضى لا يبالون بمشكلة الإيمان والذين يعودون إلى لامبالاتهم في سن النضوج. وتقع هذه النزعة الدينية -كما يقول ستانلى هل- في حوالى سن السادسة عشرة. ويمكن اعتبار «الدخول في الدين» عند حدوثه، كما لو كان صورة مركزة ومختصرة لنمو الشخصية، فهو يسمح للمراهق الذى تتنازعه القوى المتعارضة أن يعثر على وحدته وسبب وجوده في الله، وكذلك أن يشبع حاجته الجامحة للحب والكمال والتفسير. وهكذا يكفيه الله مئونة القلق الداخلى ويعاونه على الدخول في إطار الحياة العامة. وهكذا تنتظم قيم الحياة في تسلسل بالنسبة لقيمة عليا.

أما بالنسبة للذين لم يتلقوا تعليما دينيًا خلال طفولتهم، فلا توجد مثل هذه الحركة المفاجئة، بل يقوى حب الله ويبتعد أكثر فأكثر عن عاطفة البنوة التى كانت تدخل معه في علاقات وثيقة خلال السنوات الأولى من الحياة. كما يرى بوفيه P.Bovet، ويأخذ شكل حاجة إلى التدين تصاحبها عند الفتاة عادة نزعات صوفية، وفى هذه اللحظة بالذات يتحدد الميل إلى المهن الدينية.

ولكن كثيرًا ما يمر إيمان الشباب بأزمات متعاقبة عندما يتعارض السلوك

والقيم التى اكتشفت حديثًا، وهذا ما يحدث عندما تصطدم القيم الدينية ببعض القيم الاجتماعية التى تستهوى الكرامة، أو عندما تثور الرغبات الجسدية على قواعد الأخلاق الدينية، فيخشى على الإيمان من الهزيمة أمام الشهوات التى تنطلق من عقالها. وفى مجال الفكر، يسعى المراهق للتوفيق بين معتقداته ومعلوماته، وغالبًا ما تظهر نوبة من الشك في حوالى سن السابعة أو الثامنة عشرة، خاصة عند الطلبة، عندما يبدو لهم التناقض بين العقيدة وبعض نتائج العلم أو بعض وقائع الحياة اليومية، وذلك عن طريق التفكير النقدى. وقد لاحظ بعض علماء النفس من حدوث هذه النوبات عندما تكون التربية الدينية لا تزال في بدايتها، فتكون بذلك أشبه بالثوب الذى يتخلص منه الإنسان عندما يجده معيقًا له. ومن المؤكد أيضًا أن هذه النوبات تحدث في حالات أخرى، ويخرج منها الشباب وقد ضاع إيمانهم أو قوى بالتجربة، بينما يحتفظ البعض لنفسه بدين شخصى بعيد إلى حد ما عن العقيدة الصحيحة. ويمارس الاتصال بالقيم الدينية دائمًا تأثيرًا عميقا على تكوين الشخصية وذلك بإرغامها على تحديد معالمها بما يتفق والعالم الخارجى.

من الأنا إلى الشخصية: ونلاحظ الآن جيدًا التقدم الأساسى الذى يتحقق خلال المراهقة في مجال الشخصية.

١- يتكشف إحساس الفرد بذاته بالتفكير وأحيانا يشتد هذا الإحساس في فترات معينة.

٢- تنفذ إليه الشخصية الاجتماعية من خلال المشكلات التى سبق لنا تحليلها.

٣- يسمح السعى إلى قيم الحياة للشخصية بتحديد مكانها بالنسبة لهذه القيم وتنظيمها في جهاز متماسك. وهكذا نصل إلى المبدأ الأخلاقى «للشخصية»، ويقوم على الذات، وتعبر عنه الشخصية الاجتماعية، وأخيرًا ينتسب إلى حقيقة عليا أسمى منه.

وكذلك نلم بالدور الرئيسى للقوى الروحية في هذا العمل البناء. فيوجد بين اللحظة التى يحس فيها المراهق بقيمته الذاتية واللحظة التى ستتولى عليه فيها قيم اجتماعية قليلة الشأن أحيانا. فترة من الوقت يجب حمايتها واستثمارها، وهى الفترة التى يتم فيها السعى وراء قيم جمالية أو أخلاقية أو دينية تسمح لشخصية الشاب باكتساب أهميتها وسموها. وبفضل هذه القيم، يميل التعارض بين الفرد والمجتمع إلى التلاشى، إذ يجد كل منهما نفسه تحت سيطرة قيم أكثر رفعة.

وتتغير هوية الشباب الإنسانى الذى تحددت معالمه تبعا لهوية القيم التى تحيط به. فأى القيم يختار؟ وما مدى الأهمية التى يعطيها لكل منها؟ تلك هي الأسئلة الرئيسية، الأسئلة الملحة التى تواجهها الأيديولوجيات المختلفة، ولن أتورط في اختيار يقع جزء منه على عاتق المربى وحده. ولكن مهما كانت القيم التى نفرضها على الشباب، علينا أن نراعى اتفاقها وميوله، فلتكن هناك «مثالية» تدعوه للحماس وللجهد الشخصى والإخلاص، مستعينة في ذلك بطاقته للحب، حب الشرف والواجب والجمال والله، فهذه طريقة تحمل بها كل قيم الحياة إلى أسمى مستوياتها. ولكن بينما نحن نرشد الشباب إلى هذا الطريق، علينا أن نذكر إمكانياته: فإن المثالية التى تفوق طاقة البشر تفقده القدرة على السعى، كما أن الجهود العنيفة تؤدى إلى الفشل الذريع الذى يثخنه بالجراح أو يفت من عزمه، ولكن التمرين المعنوى مثل التمرين المادى، يجب أن يكون تدريجيا ومحدودًا.

ومن بين «منهلى الأخلاق والدين» اللذين تعرف عليهما برجسون، ينهل الشباب أولا من «الأخلاق المفتوحة»، لا الأخلاق الاجتماعية، ويضطربون في سن الخامسة عشرة أو السابعة عشرة بنداء كل ما هو مقدس أو بطولى، ويودون لو أعادوا بناء العالم، والتخلص من الشر، ونشر العدالة المطلقة. وعلينا ألا نبتسم أو أن نغضب، فقد تفتح السماء أبوابها مستجيبة لهؤلاء الذين يسيرون وقد رفعوا أعينهم نحو القمة.

الخاتمة

رسالة المراهقة

المراهقة قيمة: توشك رحلتنا للكشف أن تنقضى، قد أتاحت لك أن ترى -أو على الأقل هذا ما أتعشمه- أن للمراهقة أهمية كبيرة في حياة الكائن البشرى. وربما تعتقد أن كل المشكلات التى تواجه الشباب عبء ثقيل على سن صغيرة عرف عنها الاضطراب وعدم الاستقرار ولا تصلح -كما يرى البعض- إلا للحلم أو التضجر. ولكن علم الشباب يمكننا من الاعتراض على هذا الوهم الخطير عند البالغين، إذ تدل دراسة المراهقة بالطرق العلمية للبيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع. أن هذه الفترة تمتاز على العكس بالثراء بكل الإمكانيات وبتمهيدها الجاد لحياة البالغ حتى يمكن القول إنها الفترة التى تتحدد فيها معالم كل مصير.

وقد أحس بهذا الرواد الأوائل مثل ساندرسون Sanderson وبادن باول Baden Powell في إنجلترا، وليتز Lietz وويـنكين Wyneken في ألمانيا، كما وضعت الحكومات بدورها الشباب فى أول قائمة اهتماماتها فهل تقوم بإعداده؟ لا شك في ذلك، ولكن هناك سببًا آخرًا لذلك. فبالإضافة إلى الرغبة في الاعتماد على العناصر الشبابية التى ربيت طبقًا لنظام الحكم المعمول به، فوجد فكرة حديثة جدًا، وهى أن للشباب قيمة خاصة به، وأن يمثل نمطا للحياة له جماله وروعته، وأنه يجب أن يقود كل تطور لاحق في حياة الفرد. وقد اعتدنا ألا نعول إلا على أحكام الرجل الناضج ونشاطه وكأنما لا يوجد شيء آخر سابق له، وكنا في ذلك نستجيب لميل منا للاستقرار. ولكن ما كشفت عنه بلاد مثل ألمانيا وروسيا وإيطاليا من خلال انتفضاتها، اكتشفته فرنسا أيضًا بدورها، إذ إن للشباب قيمته التى يمكنها أن تعمق مفهومنا للحياة.

وربما كان هذا الكشف الأخير في المراهقة هو أهم ما تم فيها من

اكتشافات، فهو يتعلق بظاهرة الإحساس الجماعى الذى نعيش فيه دون أن نقيم له وزنًا كاملا أو أن نتنبأ بعواقبه. ويمكن أن نجد بعض عناصر هذا الإحساس واضحة تمامًا في الحركة الرومانسية التى تستمد جزءًا من أصالتها في قيامها كذوق وفلسفة للمراهقين؛ وكان في انتصارها نصر للفنائية والذاتية. ونصر لقيم الشباب على قيم البالغين، وهو نصر للعاطفة على العقل، وللمثل الأعلى على الحكمة، وللحركة على الجمود. ويحاول عصرنا أن يحقق في الحقل السياسى والاجتماعى ما حققته الرومانسية فى المجال الفنى، سواء في الشعر أو الموسيقى أو التصوير. أى في الفنون الثلاثة التى تعد مرتعا خصبا للغنائية. وهكذا كان الاهتمام العميق بحركات الشباب مثلا يكمن في جهودها لتحقيق «حياة» شابة كاملة.

رسالة المراهقة: ولما كانت المراهقة ترتبط بحقيقة روحية فإنها تعتبر قيمة في حد ذاتها. ولما كانت قيمة، قامت محاولات لتحديد رسالتها في حياة الفرد أولا، ثم في حياة المجتمع ثانيًا.

ودورها في حياة الفرد هو أولا إتاحة الفرصة له «كي يكتشف الكائنات»، أى أن يكتشف نفسه والآخرين كذلك، أو الأنا والأنت كما يقول بوبير M. Buber، وأن يلم بها فى حقيقتها المثلثة، الفردية والاجتماعية والمثالية. وقد وضحت لك من قبل أن المراهق يحقق ذاته بالمعارضة وأنه يحس بنفسه باتصاله بالآخرين. ونتيجة لذلك لا يرى المراهق الآخرين إلا على صورته، أى ككائنات مفردة تسهم في الحياة الاجتماعية سواء تعلق الأمر بالأنا أو الأنت، فهو لا يرى هذه الكائنات إلا من خلال خياله العاطفى، في صورة شخصيات مثالية ذات ملامح رئيسية فقط.

أما الدور الثانى للمراهقة فهو إتاحة الفرصة للفرد لتوسيع أفقه إلى أقصى حد ممكن وبذل كل قوته والتعرف على إمكانياته المختلفة قبل أن يقدم على اختيار قاطع يعلن عن بلوغه مرحلة النضوج. فالنشاط الذى تعرفه المراهقة لم يعد مجرد لعب كما في الطفولة، كما أنه ليس بالجهد الفعال

الراسخ كما عند البالغ. ولكنه نوع من «اللعب الجاد» الذى يعبر عن التوجيه والارتباط والإعداد.

وهكذا تكون أهم ميزة للمراهقة هى أنها لا تبقى على الفرد في حالة سابقة للنضوج، ولكنها تدفع به إلى حدودها، وربما إلى أبعد من الحدود المتعارف عليها للإنسان. فالشباب بفضل خياله الفياض وفضوله متعدد الجوانب، هو أفضل مرحلة لما يمكن أن يسمى «بالتحول الفكرى» ففيه تتكون الأفكار الجديدة ووجهات النظر الفردية وأنواع الإبداع الذى سيظهر في المستقبل، وكل ما تعتمد عليه رسالة كل فرد.

وأخيرًا تتيح المراهقة لاتجاهاتنا الأساسية إزاء الحياة أن تنتظم، وعندما نصل لسن النضوج تعود إلينا ذكراها حية في ساعات الملل، فتكون لنا نبعًا دافقًا من الثقة والنضرة والصفاء.

وإذا كانت هذه رسالة المراهقة في حياة الفرد، فلعلك تحدس الآن ما يمكن أن تكونه في حياة البلد، إذ يجب أن تكون المراهقة أولا وقبل كل شيء «العنصر الديناميكى (المحرك)» للجسم الاجتماعى، فهى مصدر الحماس والطاقة فيه، كما تبعد بقوتها عن الجماعة كل جمود وتصلب لأنها لا تزهد في التغيير كما هو الحال في سن النضوج، بل تحبه. وكذلك يجب أن تكون المراهقة «عنصر مثالية»، وهو العنصر الذى يتعطش دائمًا للإخلاص وإنكار الذات. ويكره التآمر والخديعة، وبذلك يحمى قيمه الخلقية التى يفسدها التمادى في المرونة. وهكذا تستطيع المراهقة - بل وهذا ما يجب عليها - أن تسهم في سلامة الحياة العامة وتقويتها.

من أجل مراهقة متفتحة: ولا تقوم المراهقة برسالتها كاملة إلا بتوافر شرطين: فيجب أولا «أن تتحقق وأن تتفتح وتزدهر عند الجميع»، وثانيًا «أن تأخذ مكانها بالنسبة للحياة الإنسانية في مجموعها».

وقد رأينا كيف يمكن للتربية أن تعاون الشباب في نموه بمواجهة كل حدث هام في حياتهم البيولوجية النفسية. ولن أعود إلى هذا الحديث ثانية، ولكن هناك

مشكلة خطيرة تعترض الكثيرين ممن اضطروا منذ وقت مبكر لتكسب حياتهم دون أن يكون لديهم الوقت الكافى «للمراهقة» - إذا أمكننى أن أستعين بمثل هذا التعبير؛ ففى المزرعة، وبخاصة في المصنع، يصلون سريعا للنضوج بالاتصال الدائم بالمبالغين من الغرباء، وكذلك بالخبرات المبكرة التى يحصلونها. فإذا كان الشباب في واقعه قيمة، كان من الواجب أن يتمتع كل العمال من الشباب بتذوق حلاوة الحياة الشابة، وأن نحميهم من المراهقة المبتورة بإطالتها بقدر الإمكان وبالسماح لهم بالتفتح في تنظيمات مرنة متنوعة مثل حركات الشباب، وبيوت الشباب، وأندية الشباب إلخ... وهناك مشكلة أخرى تواجه الطلبة، وليس لنا أن نخشى عليهم من مراهقة مختصرة، بل على العكس من مراهقة طالت وزاد اقترابها من نمط الحياة في الطفولة. وهنا يجب مراعاة أن يشعر هؤلاء الشبان بالميل لأنواع النشاط الحقيقى، وأن نجنبهم الانطواء على أنفسهم لفترات طويلة وفقد الصلة بالحياة الاجتماعية. وهكذا يمكننا، بالحد من النوع الأول، وبدفع النوع الثانى، أن نقيم تماسكا ووحدة بين الشباب بأن نسمح لكل فرد بتحقيق ذاته بطريقة طبيعية.

ولعلك تعرف ما يعنى «بإعداد الشباب»، ولا يكون هذا بتجمده لصالح حزب معين أو أيديولوجية معينة، ولكن بتفتحه في ذاته، ولا يكون باستبعاده لخدمة إطار واحد يختنق فيه، بل بتمرسه الدائم على العمل الشخصى. ويحتاج المربى الذى يود تحقيق هذه المهمة الصعبة لعقل واع وحب عميق للشباب، فعليه أن يهيئ الفرصة لتفتح القوى الكبيرة الكامنة في المراهق وربط كل إمكانياتها بالواقع مع حمايته فى نفس الوقت من التطرف، فهوعيب تتصف به طبيعته، فهذا يعنى تحول التقليد إلى قلق والحماس إلى تعصب وتجميد روح الاستقلال في قالب من العصيان. ولكى نعد الشباب يجب أن نلهب إمكانياته وأن ننظمها، وبهذا الشرط وحده يمكن للشباب أن يقوم برسالته وأن يحقق الرفعة للوطن.

المولعون بالشباب: ويجب ثانيًا أن يوضع الشباب داخل إطار الحياة حتى

يصل إلى تحقيق أهميته كاملة وإلى معرفة حدوده. وقبل أن تثبت الحرب العالمية الثانية أن الشباب قيمة بشرية ثمينة وأن علينا أن نبحث فيها عن دروس قيمة، كنت أنادى بذلك كله، وجاءت الأحداث لتقوى عقيدتى هذه. ولكن الشباب ليس وحده هو كل القيمة مع أن الحماس قد يدفع البعض الآن إلى القسم به فهو في رأيهم نوع من الكمال السامى، ويرون أن كل المنى في محاولة الاقتراب منه بقدر ما يمكننا. وهذا انحراف طبيعى جدًا، ولكنه خطير.

وهو طبيعى لأن الإغراء فيه كبير إذ نرى في المراهقة أو فترة حمية الشباب أجمل لحظات العمر، وفي ميزات هذا للسن نموذجًا للكمال. وهو خطير لأن هذه الميزات لا يجب أن تحول أنظارنا عما بها من نقص، فإن رغبتها في المطلق ليست مطلقة، وعندما نرى فيها نوعا من الإعجاز الحى فإننا نغرس في رءوس الشباب زهوًا وتباهيًا لهما ضررهما، إذن علينا ألا نتمادى في الخلط بين القوة والعقل.

وألا ننسى انه طالما كانت المراهقة قيمة إنسانية كان عليها أن تنضم، ككل القيم الأخرى، إلى قيم أعلى منها، فالبطولة ليست فضيلة إلا بارتباطها بقيمة عليا، وهى القضية التى يدافع عنها الإنسان مضحيا في ذلك بحياته، وإلا انحرفت البطولة إلى عنف، وكذلك تتحدد المراهقية الخلقية كقيمة بالنسبة لحقيقة أعلى منها، وهى عزة الإنسان، فهى لا تستطيع أن تكتفى بنفسها، مثلها في ذلك مثل المراهقة البيولوجية أو النفسية، إذ إنها ليست سوى حلقة في سلسلة، ولا تأخذ لذلك قيمتها إلا إذا كان من الممكن تخطيها. وقد جعل اليونان من هيبى Hebe آلهة، ولكنها لم تكن الإرادة الإلهية العليا في الأوليت.

حقا إن الشباب يمر سريعا وأن العيون المتعطشة للجمال يحزنها أن ترى الزهرة وقد ذبلت، ولكن ذلك لأنها تنسى سبب وجود الزهرة، وهو الثمرة نفسها. وحقا كذلك أن النضوج لا يعنى دائما بوعود الشباب وأنه كثيرًا ما يبدو كما لو كان تهاويا أو نكوصا. ولكنه إذا كان نشاطنا بالاختيار الملزم، فإنه

يزيد أيضا من فعاليته، ولا يبدو تقهقرًا من الناحية الأدبية إلا إذا قبلناه كذلك. إذ يتوقف علينا نحن أن يلى المراهقة نضوج جدير بها. وبعبارة أخرى، نضوج أسمى منها.

وكل مرحلة في نمونا تعتبر قيمة في واقعها. ولها رسالة خاصة بها، وعلى الرغم من تمايز هذه المراحل إلا أنها متماسكة إذ تترك كل منها في المرحلة التى تليها أثرا يزداد عمقه كلما استطاعت المرحلة الأولى أن تنمى إمكانياتها بطريقة كاملة. وهكذا يلهد القط الصغير، ولكنه فيما بعد سيصير قادرًا على اللعب مع صفارة، كذلك تعد المراهقة المثمرة لانتصارات سيعرفها سن النضوج، كما أنها تستمر في التأثير عليه.

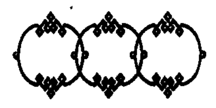
وبذلك يعتبر التغاضى عن المراهقة أو إنكارها إسفافا، والأسف عليها ضعفًا، والتمسك بها خطأً ولكن يجب أن يبقى فينا كل ما بها من خير كقوة مركز ومثل حى ومنهج للعمل نسعى لتحقيقه.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

خادم القرآن

محمد بن محمود العبدالله



فهرس الكتاب